خَالد محَّمد خَالد

كما تحدث القرآن



الطبعة السابعة

جمادى الآخر ١٤٢٥هـ ــ أغسطس ٢٠٠٤م

القاهرة

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان ــ عابدين

القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ ــ ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

مُقَدِّمَة

في فبراير عام ١٩٦٢م صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وكان يمثل أول محاولة من جانبي للدراسات القرآنية المباشرة، ولم يكن- كما سيراه القارئ- يتبع المنهج التقليدي الذي يتناول القرآن العظيم عن طريق تفسير السور أو الآيات، بل كان يمثل نمطا آخر يتناول القرآن من خلال القضايا والموضوعات.

فهو- مثلاً- يعرض قضية «**الإنسان العادي**» رمز الكادحين البسطاء الودعاء، أو قضية «**وحدة الدين**»، أو سواهما من القضايا التي تجدونها بين دفتي الكتاب، ومن خلال هذه القضايا يولي وجهه شطر القرآن الكريم، متتبعا آياته التي تضيء هذه القضايا بنوره، وتغطي احتياجاتها بحكمته.

ولقد كان العزم- ولا يزال- أن يكون هذا الكتاب بمثابة الجزء الأول، تتلوه عدة أجزاء.

بيد أني بعد صدوره، نادتني سير الخلفاء الراشدين، وسير الرجال الذين نهضوا حول الرسول.. واستغرق تأليفها وإخراجها من الوقت ما شغلني عن متابعة كتاب [كما تحدث القرآن].

والآن، وأنا أقدم هذه الطبعة الجديدة منه، والتي تقوم بنشرها «دار المقطم» للنشر والتوزيع بالقاهرة، يأخذني ذلك الحنين القديم إلى إتمامه، ولا يكون ذلك إلا بتوفيق من الله وفضل.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ييسرنا لليسرى، ويتم نعمته وعافيته علينا، ويهدينا سواء السبيل.

القاهرة: ١٩٩٤ م

خالد محمد خالد

مُقَدِّمَة

حول مائدة القرآن، نلتقي اليوم ضيوفا مباركين..

هذا الكتاب الذي وفد على الدنيا منذ ألف وأربعمائة عام، والذي ألقاه «روح القدس» على قلب الرسول محمد؛ ليكون من المنذرين، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥].

ولقد اختلف ناس كثيرون حول هذا القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى لمجيئه..

وحتى اليوم، لا يزالون يختلفون.

بيد أن الحقيقة التي لم يختلف فيها أحد، ولم يجحدها جاحد ومعه عقله، هى تلك المعجزات العظمى التي حققها القرآن، بما شاد من عالم، وبما رفع من قيم، وبما أضاف إلى الحضارة الإنسانية من أرصدة لا تفنى، عن طريق الدنيا المسلمة التي أيقظها، وجمع شعثها، وأخرج خبئها النفيس، وجمعها تحت رايته وإيمانه.

فالإسلام بكل فتوحاته العقلية والروحية والحضارية، لا يذكر إلا ويذكر- قبلا- هذا القرآن الذي كان مَعْقِد العزم، وموطن السر،

وجماع الطاقة.

هذا الكتاب الذي لم يخلف موعده مع القلة المؤمنة التي كانت ذات يوم بعيد تستخفي بإيمانها، وتهرب بحياتها من الشر المتربص بها في طرقات مكة ومنحنياتها.

لقد وعدها القرآن- يومئذ- أحلاما تذهل من فرط خيالها الأحلام!!

لكن.. لم تكد الأيام تمضي حتى صار الحلم حقيقة، والخيال وثيقة، وإذا العقيدة المستخفية المرتجفة تأخذ مكانها فوق الشمس، وإذا الدنيا تدور في فلكها، وإذا بها تنجب الدعاة الربانيين، والحكام العادلين، والعباقرة، والفلاسفة، والعلماء.. ويتفيأ الناس ظلالها أفواجا وزمرا، وتردد ملايين الألسنة، في عشرات الأقطار، آيات ذلك القرآن العجَب والكتاب المبين.

وهذه الصفحات التي تطالعها تحت عنوان «**كما تحدث القرآن**» لا تزعم لنفسها أنها تقدم القرآن، أو تفسره، أو تنتظم بحثا عنه- إنها تلقي السمع لا أكثر، وترسل البصر وراء موكب من آياته الباهرات.

إننا نقرأ الآية من القرآن فلا تلبث حتى تذكرنا بآية أخرى مماثلة لها، ثم تنادي الآية الثانية إلى خواطرنا آيات أخرى كثيرات.. وإذا نحن آخر الأمر أمام قضية كاملة، كونت الآياتُ المبثوثة هنا وهناك كلَّ عناصرها، وقالت فيها قولا بليغا.

ولقد أغراني هذا بأن أتتبع بعض الآيات البينات على هذا النسق.

فإذا آياتٌ، يتحدث القرآن خلالها عن نفسه، ويطرح بنفسه كل ما

يدور حوله من أسئلة الشك واليقين.

وكانت هذه- الفصل الأول من كتابنا هذا.

ونادتني آيات أخرى، وجدتها في النهاية تُنحي القوة عن طريق الحق، وتضع المنطق والحجة والإقناع مكان التسلط والإكراه.

وكانت هذه- الفصل الثاني من الكتاب.

وسرت وراء مجموعة ثالثة من الآيات، فإذا أنا أمام كل حقوق «**المواطن العادي**» يرسم القرآن في بهاء عظيم كل مبادئها الأساسية، ويرفع بها راية البعث للجماهير الكادحة، وللناس البسطاء الودعاء.

وكانت هذه- الفصل الثالث من الكتاب.

ثم بصرت بآيات تتبع القرآن بها مآسي الناس وكرباتهم وحاجتهم وشكاواهم.. تَتَبَّعها في حنان واهتمام ويقظة، فبهرتني الطريقة التي يتلقى ويعالج بها تلك المشكلات.

وكانت هذه الآيات- الفصل الرابع من الكتاب.

ثم ألقيت السمع وهو شهيد، والبصر وهو منبهر وحديد، إلى آيات سمعتها تعزف لحنا عجبا، لحن «**وحدة الدين**».. الدين واحد منذ أول داع إلى الله حتى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

وكانت هذه- الفصل الخامس من الكتاب.

ثم دعاني المشهد الحافل، حيث الأرض هناك غاصة بالأصنام المهشمة، والأوثان المحطمة، والأرباب الكاذبة المخلوعة، والخرافات المثخنة، وأدركت من فوري أنني أمام الأرض التي دارت عليها أعظم

معارك القرآن، معركة «التوحيد».

وعلى صدح الآيات التي تعلن وجود الله ووحدانيته، كان الفصل السادس لهذا الكتاب.

عبر هذه الرحلة القصيرة الممتعة، لم أحاول أن أخلع على الآيات معنى أريده ولم أكلفها غايات لا تريدها، بل تركتها تقودني وحدها إلى غاياتها الباسلة الجليلة، فإذا أنا أمام فتح عظيم مبين، أتمه القرآن لحساب الإنسان.. لحساب عقله، وكرامته، وضميره.

ولقد يأذن الله ذو الفضل العظيم فنعود إلى متابعة هذه الرحلة التي يتحدث القرآن خلالها، ونصغي نحن إلى هذا الحديث.

ولقد أوحى إليّ انبثاثُ الآيات وتفرقها في كثير من السور، بينما هى حين تتجمع في مكان واحد أو سورة واحدة تكون قضايا مكتملة العناصر والسمات.. أقول: أثارت هذه الظاهرة في نفسي هذا السؤال:

-لماذا لم يُرتِّب القرآن نفسَه ترتيبا موضوعيا؟

فيجمع في سورة «النساء»- مثلا- كل آياته التي تعرض قضية المرأة وحقوقها.

ويجمع في سورة «الشورى» كل ما قاله عنها.

ويجمع في سورة «الأنبياء» كل ما يريد أن يقوله عنهم.. وهكذا.

ولم أبحث عن الجواب طويلا، فسرعان ما أدركت في ضوء القرآن نفسه أن القرآن لم يرتب نفسه ترتيبا موضوعيا لسبب يسير، هو أنه ليس كتابا مؤلفا.

أجل . . فلو كان القرآن كتابا مؤلفا لانتهج ذلك الذي لم يكن يؤوده أو يعجزه .

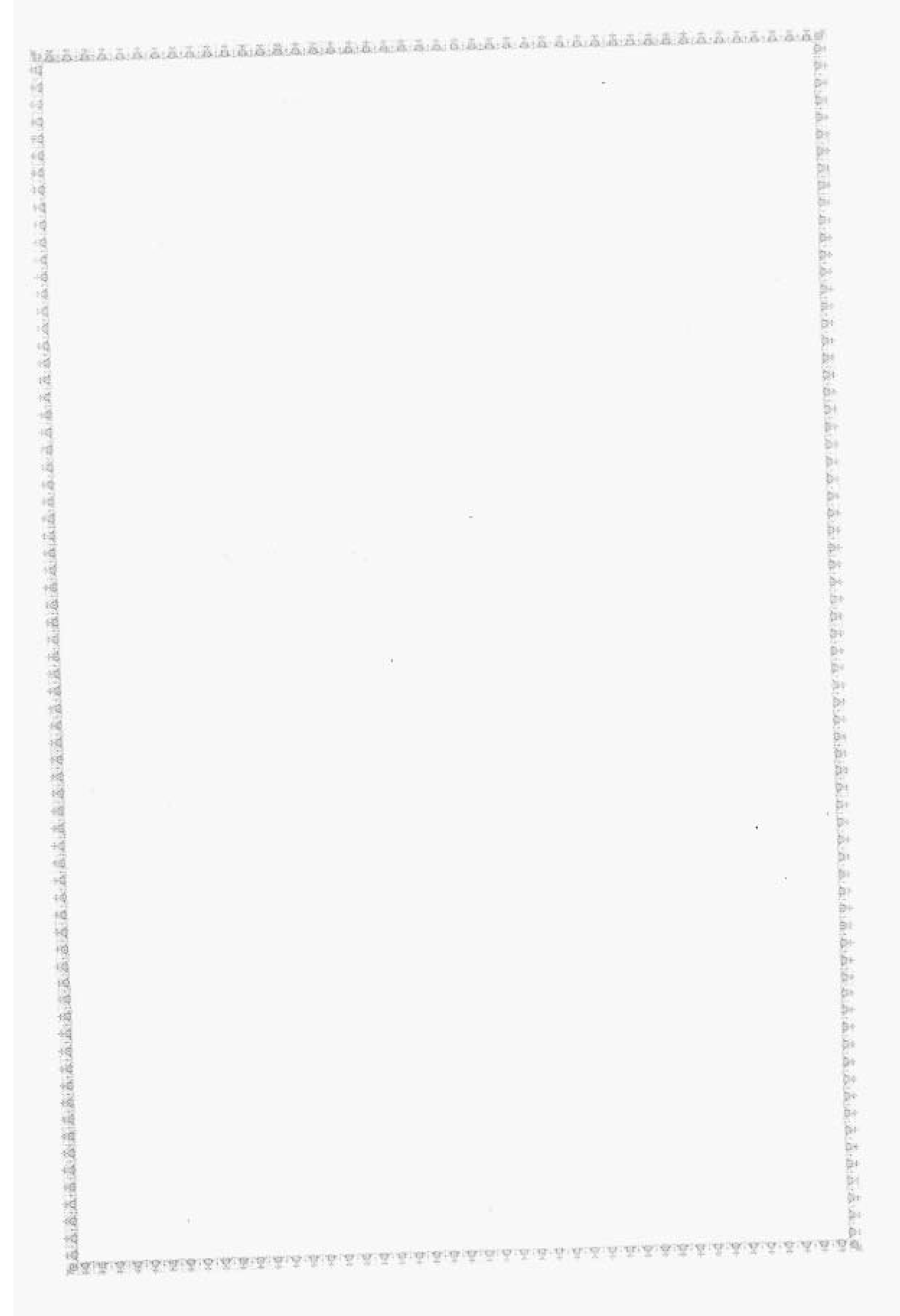
ولكن القرآن ، هتاف بآيات الحق والهدى ، يعطي المناسبة حقها في كل حين . ولو كان الرسول عليه الصلاة والسلام مؤلِّفا للقرآن لَعَمد- ولو في آخر عهده بالدنيا- إلى ترتيب القرآن وفق المادة والموضوع .

ولكن الرسول لم يكن يؤلف القرآن ، إنما كان يتلقاه .

وفي أسمى حالات التفتح الروحي ، كانت الآيات البينات تهطل كالغيث بالهدى ودين الحق ، ناقضة عن الضمير الإنساني غبار الجهل ، وعبء الخرافة ، ووطأة الرضوخ .

كانت ولا تزال تهدي للتي هى أقوم غاية ، وأهدى سبيلا .

خالد محمد خالد

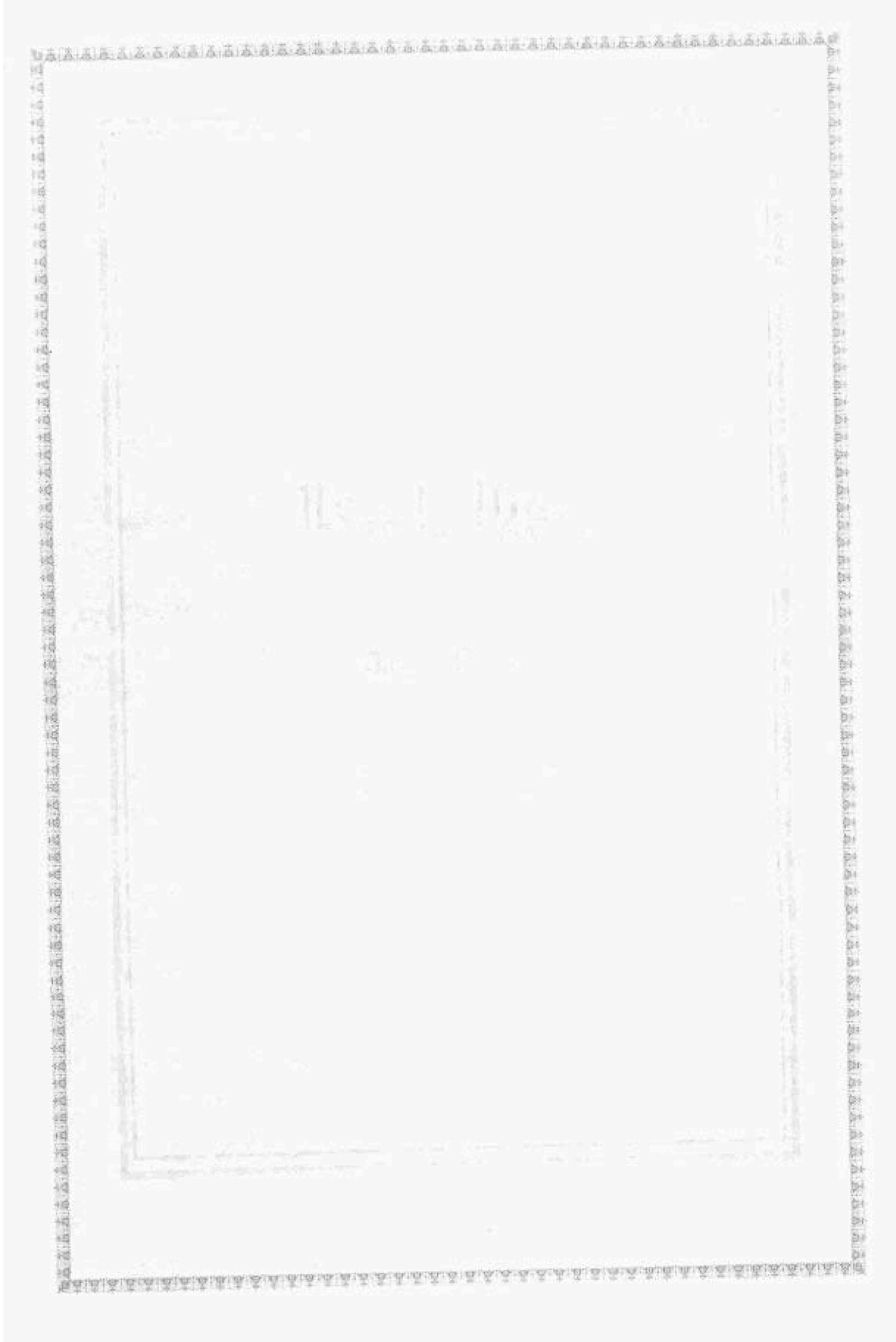




الفصل الأول

عن نفسه

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾



مائتان وثلاثون آية أو تزيد، تحدث القرآن فيها عن نفسه، وطرح خلالها كل الأسئلة التي تتعلق به، وأجاب عنها.

ما هو؟

من أين جاء؟

ولماذا جاء؟

هل هو سحر؟ هل هو شعر؟ هل هو إفك مفترى؟ هل هو أساطير الأولين؟

هل هو نقض لما سبقه، أم هو مصدق الذي بين يديه من الكتاب؟

ولماذا لم يأت جملة واحدة؟

وهل جاء لقريش وحدها؛ أم هو ذكر للعالمين؟

وما موقفه من الذين ارتابوا فيه، والذين خاصموه وولوا عنه مدبرين؟

عشرات الأسئلة طرحها القرآن تباعا، وأجاب عنها في وضوح.. كما جلى بها حقيقته وحكى بها قصته.

وأول ما يلقاك حين تفتح المصحف هذه الآيات:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى
لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ
أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ
۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥]

هذا هو القرآن، وهذه هي أسرته..

أما هو- فكتاب ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وأما أسرته- فهم الذين ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [البقرة: ٤].

وإنها لبداية سعيدة وباهرة، ينحّي القرآن بها عن نفسه صفة الإقليمية والعنصرية والطائفية.

فجمع الذين لهم إيمان بالله، وبالحق، وبالغيب- القرآن كتابهم.

وهو- إذن- لم يأت لينقض ما سبقه، بل جاء يكمل ويتمم.

والذين يؤمنون به يؤمنون حتما وضمنا بكل ما سبقه من كتاب.

أما الذين يقفون بإيمانهم عند بعض الكتب السابقة لا غير، فأولئك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ

ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾

[آل عمران:٣-٤]

وإذا كانت التوراة والإنجيل- الكتابان اللذان يتحدث عنهما القرآن - لم يكونا فرية ولا ضلالا، إنما كانا رحمة للناس وهدى، فكذلك القرآن الذي جاء يتمم رسالة الكتب السابقة والصادقة.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:٣٧]

وهذه- لدى القرآن- حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن المؤمنين بالكتب السابقة إذا كانوا لا يبخسون إيمانهم، ولا يحرفون الحقيقة أو ينكرونها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الأنعام:١١٤]

بيد أن هناك فريقا سيجمد إيمانه عند أحد الكتب السابقة، وحين يُدْعى إلى الإيمان بهذا القرآن سيكفر ويثني عِطْفه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ [البقرة:٩١]

والقرآن يرى في هذا الموقف إنكارا لقضية الإيمان كلها، فما دام هو مصدقا لما بين يديه من الكتب فلماذا لا يشمله إيمان المؤمنين بها؟

ولماذا- وهو في هذا الموقف بالذات يناقش كبار اليهود الذين حملوا

يومئذ راية الجحود والعداوة للقرآن- لماذا يكفرون به وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا؟ لماذا يجحدونه اليوم؟

يقولون: إنه الولاء لإيمانهم وكتابهم وأنبيائهم!!

وعندئذ يَجْبَه القرآنُ سريرتهم قائلا:

﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]

وهو يزيد باطلهم دحضا وحجتهم ضعفا حين لا ينكر من الكتب السابقة شيئا، ولا ينكر عليها شيئا، بل يجعلها دائما موضع إجلاله وتوقيره.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢]

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]

ثم هو يدعو المؤمنين به إلى الإيمان بكل ما سبق من نبي ورسول وكتاب:

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]

ثم يلتفت القرآن صوب محمد رسول الله، فيخبره أن الذين يجحدونهما معا- القرآن والرسول- إنما يستجيبون لجهالات تملى لهم، وأحقاد تستحوذ عليهم.

والذي يصدر عن جهل حَرُونٍ، أو تعصب أعمى، أو حقد ملتاث، لا يزيده وضوح الحجة وانتصارها إلا صدودا وجحودا، فامْضِ أنت في طريقك غير عابئ بهم، ولا آسٍ عليهم: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]

وبنفس النهج الذي ينهجه القرآن في محاجة أهل الكتاب، يواجه من قبل عبدة الأوثان من مشركي مكة وكفارها. هؤلاء الذين قالوا عن القرآن إنه:

﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]

وقالوا عن أنفسهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]

وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]

وقالوا: ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]

وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]

هؤلاء الذين لم يَدَعوا اتهاما ينال من القرآن في زعمهم إلا اقترفوه.

هؤلاء الذين رأوا في القرآن قدرا جاء يذيع نعي آلهتهم، ونعي الضلال الذي وجدوا آباءهم عليه عاكفين، تدرج القرآن معهم في سبيل نهنهة أضغانهم، وتصحيح فهمهم، وتألف قلوبهم.

وهو إذ يدرك دور الأنانية التي تحرك الناس وتحدد الكثير من وجهاتهم يسأل كفار قريش: لماذا تخاصمون القرآن؟ أخوفا منه على أمجادكم؟ ويحكم إذن.. إنه إذا كان لكم مجد يرتقب فلن يصلكم به سبب مثلما يصلكم به هذا الفرقان.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠]

وإذا كانت الأمم لا يخلد أمجادها شيء مثلما يخلدها انتشار لسانها ولغتها، فهذا الكتاب سبيلكم إلى الخلود.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر:٢٨]

على أن هذا القرآن وهو يذكر المشركين بهذا النفع الأدبي الذي سيفيئه عليهم إيمانهم به، لم يكن يريد أن يتملقهم، أو يحملهم على أن ينشئوا علاقاتهم به وفق هذا النفع وهذا الاعتبار.

إنما كان يذلل -لا غير- بعض الصعاب التي تلقيها غرائزهم في طريقهم، وإلا فهو إذ يمن عليهم بأنه عربي مبين، يكشف في نفس الوقت عن التبعات الكبرى التي تترتب على هذا الاعتبار.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ﴾ [إبراهيم:٤]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم :٩٧]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان :٥٨]

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء :١٩٨-١٩٩]

فهو كتاب عربي مبين، يخاطبهم باللغة التي يفهمون، ويدعوهم إلى الله الحق الذي هم به مشركون.

وحين يذهب خصوم القرآن في عداوته كل مذهب، يتعقبهم القرآن ناقضا إفكهم وداحضا باطلهم بأسلوب إيجابي سمح، لا يُعْنَى بتفنيد قولهم، لأنهم لا يقولون منطقا يستحق التفنيد، إنما يُعْنِى بكشف محاسنه هو ومزاياه، وتبيان نفعه، وإلقاء مزيد من الضوء على حقيقته.

فهم - مثلا- يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام:

﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت :٥]

فيرد عليهم القرآن مقررا أن ذلك أمر طبيعي ويقول:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت :٤٤]

وهم حين تفلس حجتهم ويقولون للرسول: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ

هَٰذَآ﴾ يكشف القرآن عن التواء منهجهم في التفكير، ويبين أن الأزمة التي يعانونها ليست أزمة القرآن، بل هى في الحقيقة أزمة الإيمان . . فهم في ريب، بل في جحود بالحقيقة الكبرى التي جاء القرآن يقررها وينشر عبيرها.

وما داموا لا يؤمنون بالله الواحد الأحد ولا يرجون لقاءه فسيظلون هكذا يعمهون.

ولو أنهم آمنوا بأن وراء هذه الآيات إلها حكيما عليما ما طالبوا الرسول بتبديلها، ولعرفوا أنه لا يملك هذا الحق أبدا.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٥-١٦]

ويؤكد القرآن هذا المعنى لرسول الله حتى لا يضيق صدره، إذ يراهم يكذبون بالقرآن ويستنكفون عن طاعته.

يؤكد القرآن للرسول أن نور آياته يُعشى أبصارهم، ويقتحم قلوبهم الغلف المغلقة، وأنهم لا يشكون في صدقه، ولكن أزمتهم الخانقة هى حرصهم على آلهتهم، وكفرانهم بالله الحي القيوم . . وما دام القرآن يهتف

بوحدانية الرب، فهم عنه معرضون.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤٦]

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٣-٤٥]

وحين يلجأ المشركون تارة، واليهود تارة أخرى، إلى التشكيك في القرآن، زاعمين أن الله لا ينزل على أحد من الناس وحيا، وقائلين: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] يجيبهم القرآن الكريم قائلا:

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ [الأنعام:٩١]

ثم يلتفت إلى الرسول قائلا:

﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١]

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس:٣٩]

وحين تأخذهم العزة بالإثم، ويعجبون لماذا لم يجد الوحي سوى محمد ليتنزل عليه ويأتيه بهذا القرآن يجيبهم:

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

وإذ يأخذهم الغرور الأهوج الكاذب ويظنون أنه لو كان هذا القرآن حقا لهدتهم إلى الإيمان به قلوبهم، ولما التف حوله الفقراء المستضعفون من دونهم، يرد عليهم القرآن في تهكم ذكي:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]

ويمعن الكفار في إفكهم.. يمعنون في محاولتهم العاجزة المفلسة، فينعتون القرآن بكل ما توحي به أحقادهم. فهو في زعمهم سحر، وتارة شعر، وتارة مفترى، وتارة كهانة!!

ويدمدم القرآن عليهم بمنطق يخطف أبصارهم، ويدك أباطيلهم.. وتتتابع الآيات في نشيد قدسي مجلجل:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ

مِنكُم مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة :٣٨-٥١]

ثم يثني زمام الحديث في ختام حاسم حافل، موجها القول إلى الرسول :

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة :٧٤]

ويتركهم القرآن يتخبطون في غيظهم، ويتهاوَوْن تحت أضوائه النابغة كالفراش المخبول، حين يعلن في حزم أنه لن يشغل نفسه بترهاتهم، وأنه سيمضي محققا ظفرا بعد ظفر، وفاتحا قلوبا إثر قلوب، وهاديا إلى الله وإلى الصراط المستقيم أجيالا من بعدها أجيال، متسلحًا بالكلمة المضيئة الهادية .

أجل، بالكلمة وحدها . . الكلمة التي لا تتكون من أسِنَّةٍ ولا رماح، بل من حروفٍ بسيطة سهلة :

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس :١]

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء :١-٢]

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل :١]

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [لقمان :١-٢]

بهذه الكلمات الميسرة في تركيبها، المعجزة في جوهرها، الفاصلة في منطقها وحجتها يمضي القرآن مخلفا وراءه كيد الكائدين له والمتربصين به، جاعلا حسبه أولئك الذين فتحوا لآياته قلوبهم .

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]

ولهؤلاء يقدم نفسه وينبئهم ما هو.. وكيف يتنزل.. ولماذا يجيء..

إنه:

﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]

﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]

وبماذا نزل، ولماذا نزل؟

ما موضوعه؟ ما وجهته ورسالته؟

يجيب القرآن في إيجاز مبدع شامل عميم:

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٢-٣]

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ

ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]

ولماذا لا تأتي آياته كما يهوى الناس، وساعة يريدون؟

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ [مريم: ٦٤].

ولماذا لم يتنزل جملة واحدة؟

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ولماذا لم يفتح جميع القلوب بنوره ما دام حقا، ولماذا لم يطو أفئدة الظالمين؟

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢]

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]

وما طبيعة تركيبه؟

﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]

ولمن جاء هذا القرآن؟ ألقريشٍ وحدها . . أم للعرب جميعا . . أم للناس كافة؟ إنه لهؤلاء جميعا، لقريش ولمن حولها من العرب، وللعالمين :

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف :٤٤]

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام:٩٢]

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]

إنه تنزيل رب العالمين، فليكن إذن للعالمين جميعا . . للناس كلهم .

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر :٤١]

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية :٢٠]

هكذا حدثنا القرآن عن نفسه .

هكذا أعطانا طرفا مضيئا من قصته، ومن رحلته، كما أعطانا قبسا من جوهره وحقيقته .

ومن خلال الآيات التي تلوناها ومن خلال آياته جميعا، نرى كتابا عجبا وفرقانا عظيما، عقد نيته وعزمه على تحقيق أسمى غاية وبلوغ أعظم غرض، ألا وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، عن طريق هدم الخرافة، وإعلان سيادة العقل ووصل الإنسان بالرب .

ولقد قام هذا الكتاب المبين في أقل وقت بأعظم عمل، وأنجز في

بضع سنوات المهمة التي عقد عزمه على إنجازها، وجعل حملته والمؤمنين به رُوَّادًا ينتشرون في الأرض، في قلوبهم إيمانهم، وفي أيمانهم قرآنهم.

وفي عشرات البلاد والأقطار نكست أعلام، ودالت دول، حيث ارتفعت مكانها راية القرآن، وقام عالمه!!

وعلى طول الزمن، منذ ألف وأربعمائة عام إلى يوم الناس هذا وإلى أيامهم المقبلة، والقرآن ناشرٌ ضياءه، مذيع نداءه، يهدي إلى الله الأحد عالَما متراحب الأبعاد، وخلائق وافرة الأعداد.

كل كلمة من آياته شريعة، وعقيدة، ومشعل خالد الضياء، على طريق القافلة المؤمنة.

وقديما وقفت قريش تأتمر في بأس ويأس بآيات هذا القرآن، وهي تتنزل آية آية، وكانوا يمعنون في الكيد لحامل الراية، محمد رسول الله، يملأون مكة شكوكا حول الآيات الهاطلة كالغيث.

وكان القرآن يطمئنه ويقول له:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾

[النساء: ١٦٦]

وحين كان كيدهم يتزاحم حول القرآن كالنذر المخيفة، كان محمد يفزع وتأخذه الهموم الجليلة خوفا على ذلك النور أن يتمكن أعداء الله من إطفائه. ولكن القرآن يهدئ رُوعه ويقول في ثقة عزيزة:

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ
فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١١-١٤]

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]

ويعطيه الله وعدا يجد برد كلماته في صدره، وتفيء إليه كل سكينة نفسه، ويذهب عنه الروع، وتجيئه البشرى حين تنزل عليه هذه الآية:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

* * *

الفصل الثاني

عن منهج الدعوة

﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾



محمد بن عبدالله ..
إنسان أمين، صادق، وديع، أوّاب..

في قلبه إيمان يخصب الأفئدة.. وفي عينيه أسى عذب يتوهج كلما طوفت خواطره حول الضلال الذي يعانيه قومه.. وعلى جبهته الضارعة نِفار عزم رشيد يحكي تصميم صاحبه على أن يحمل رشده تجاه الحياة كلها والأحياء جميعا.

وإنه ليتلمس إلى الله طريقا، ويرجو منه موعدا.. فالله هو الذي سيهديه الصراط المستقيم.. الله هو الذي سيريه الحق الذي يبحث عنه، ويثبِّت على الطريق خُطاه.

ويجيئه الهدى واليقين.. ويدعوه الله ليحمل إلى الناس كلمته، ويبلغهم رسالته، ويستقبل العبء الجليل بعزم المرسلين.

وبين الأفواه الفاغرة من الدهش، والعيون المحملِقة من وقع المفاجأة، وقف ذات يوم يعلن رسالته ويقول وسط الجمع الحاشد من قومه:

﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]

وتمضي الأيام كالدهور، كل ساعة منها تلقي على كاهل الرسول

متاعبها ومصاعبها، وتنذره في نفس الوقت بمتاعب الساعة التي تليها.

وسلطت قريش على النبي ومن سارع إلى الإيمان به أضغانها وأحقادها المسلحة بكل وسائل التعذيب والاضطهاد.

هذا يُعَذَّب حتى تفيض روحه!!

وذاك يعذب وكل أمانيه في الحياة أن تفيض روحه!!

ومحمد تنتظره السخريات في كل طريق، وتتهاوى عليه الحجارة تدمي وجهه المحب الودود.

ألا يستطيع أن يغضب؟

ألا يستطيع أن يرد ولو على كل مائة لَطْمةٍ من خصومه بلطمة واحدة منه؟

إن له من شرف مَحتِده جاها يُهيئه لأن يقاتل، ويحفزه لأن يجرب قوته ولو في معركة غير متكافئة.. معركة يواجه فيها وهو وحيد أعزل مجتمعا قبليا شحذ أنيابه وجمع كيده!!

إن للطبيعة البشرية مهما يسم بها صفاء الجوهر حدودا، ولين الجانب مهما يوطِّئ أكناف صاحبه فإن له مع الشر موعدا يتحول عنده إلى قصاص ومناجزة.

والناس عادة لا يُسارعون إلى الغضب وفي أيديهم أزِمَّة القوة والسلطان والغلب، إنما يحتاجون إلى الغضب إبان ضعفهم ومقاومتهم.

ورسول الله، في الأيام التي نزلت عليه فيها هذه الآيات، كان في

حاجة إلى قدر من الغضب يحميه ويدرأ عنه غوائل التربص والعدوان.

بل إنه في ذلك الموقف الذي دثَّره الوحي خلاله بهذه الآيات الكريمة كان يعيش في دوامة من الأحداث التي لا تدع مجالا للحلم، ولا مجالا للعفو، ولا مجالا للمهادنة.

وحين نتصور أو نتخيل المشهد الذي تألقت فوق أهواله هذه الآيات الباسمة الحافلة بالسكينة والصفح، نرى عجبا أيَّ عجب..

فالمشهد هناك في ساحة أُحد بالمدينة، حيث فرغ لتوه أعنفُ قتال دار بين المسلمين والمشركين، وحيث عانقت أرضَ المعركة جثثُ ضحاياها وشهدائها من المؤمنين.. جثث لم يتركها أعداؤها سليمة بل شوهوها ومثلوا بها في وحشية داكنة.

ونزل رسول الله ﷺ ومعه أصحابه ليودع إخوانه الذين استشهدوا وليحملوهم إلى حيث يدفنون، ولكنه لم يجد شيئا يحمله!! وجد الجثث قد تحولت إلى أشلاء ممزقة.

لم يقنع المشركون بقتل المسلمين، بل مثلوا بالجثث الصريعة الشهيدة شر تمثيل!!

ودار بصُر الرسول ﷺ بين معالم الكارثة المقوَّضة.. سبعون شهيدا من خيار صحبه كلهم قد مُثِّل بهم.. أنوف مجدوعة.. وآذان مصلومة.. وأعضاء مبتورة.. ووسط هؤلاء جميعا أحبُّ الناس إلى رسول الله ﷺ.. عمه العظيم حمزة.. نفس المشهد.. ونفس المصير!!

وَيْ.. وأطلق الرسول الأمين زفرة ملؤها الأسى وأدار وجهه قليلا،

وعز على عينيه وَقْعُ مصابه؛ فنادت دموعها لتحجب بها قليلا أو كثيرا من المشهد المثير.

وأخذ المسلمين تيارٌ جارف من الغضب والغيظ، وصاحوا من فَرط حَنْقهم على صوت رجل واحد: «والله لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنزيدن على صنيعهم، ولنمثلن بهم مُثْلةً لم يمثلها أحد من العرب بأحد أبدا».

ورسول الله ﷺ ساكت؛ كأنه راض عن وعيدهم وغيظهم. بل ويروى أنه هو أيضا قد وعد جثمان عمه وهو يودعه ويناجيه بأن يثأر له وينتقم.

ولكن، ما يكادون ينتهون من الصلاة على الشهداء، ولا يكادون يفرغون من دفنهم حتى تنزل الآيات الكريمة العظيمة:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٨]

ويفيق الرسول عليه الصلاة والسلام من رُحَواء الوحي، ووجهه يتألق تحت ضوء المغفرة، ويقول: «بل نصبر يا رب».

ويصغي المسلمون لآيات الله تلامس صدورهم المتفجرة وعيدا وغيظا ولهبا . . تلامسها هذه الآيات فتحيلها بردا وسلاما وصبرا وسلوانا .

وفيما بعد . . حين جاء يوم الفتح ودخل الرسول وأصحابه مكة ظافرين، وقف أحد الذين لم ينسوا بَعْدُ هولَ فاجعة أحد، وصاح :

- لا قريش بعد اليوم . . اليومَ تستباحُ مكة . . فإذا النبي ﷺ يرسل صوته الشكور قائلا :

- **«كفوا عن القوم . . اليوم تُعظَّم الكعبة»** .

ليس أروع ما في هذه الآيات أنها نزلت على قوم يتفجرون ألما ويعانون هزيمة وَيصْلَوْن ظلما ؛ لهم فقالت : اعدلوا .

وليس أروع ما فيها أنها نزلت على قوم يتوهجون نقمة وغيظا .

ليس ذلك أروع ما للآيات من دلالة ، على الرغم من أنها في هذا وحده وبها وحده تفوق كل روعة آخذة وكل جلال ميسور .

إنما أروع ما فيها أنها نقلت المشهد من زمانه ومن مكانه ، ونقلت الرسول والأصحاب والدعوة إلى لُبَاب جوهرهم الذي لا ينبغي أن يغيب عنهم، ولا ينبغي أن يذهبوا بعيدا عنه .

والآن ، فلننظر . .

هذا رسول الله يخوض مع أصحابه معركة اضطره إليها خصوم قُساة ، يريدون أن يُطفئوا نور الله . .

ولقد انتهت المعركة بهزيمة مزلزلة . .

فما الآيات المناسبة في تقدير الناس لهذا المقام؟

ما الآيات التي يمكن أن ينتظر المهزومون سماعها وبين أيديهم أشلاء إخوتهم المستشهدين؟.

لعلهم كانوا يتوقعون آيات تشد فيهم زناد المقاومة وتثير قوى المجابهة . .

آيات إذا لم تضاعف في أنفسهم اللهفة على القصاص فلا أقل من ألا تدعوهم إلى الصفح والصبر!!

آيات تمجد المعركة التي انتهت، وتقرع الطبول للمعركة المقبلة، وتبشر المهزومين بنصر قريب!!

هذا ما كان يتوقع نزوله من الآيات. . فهل حدث؟ أبدا. . لم يحدث من ذلك شيء.

بل جاءت الآيات تذكر الرسول بحقيقته وجوهره، وحقيقة دعوته وجوهرها.

جاءت تذكره بعمله الأساسي في هذه الحياة. . تذكره بأنه صاحب دعوة لا قائد جيوش، بطل رسالة لا بطل حروب، وكذلك أصحابه الذين آمنوا معه.

لكأن الآيات الكريمة تقول له:

لقد هُزِمْتَ وأصحابك الهزيمة المريرة. . وما في ذلك بأس، فأنت لم

تُرْسَل لتحقق انتصارات عسكرية في جبهات قتال حتى تأْسَى على هزيمة، إنما أرسلتَ لترد الإنسان إلى الرب، وتدحض الحواجز المصطنعة بين الخالق والخلق، وتهدي للتي هى أقوم، وتقود النفس البشرية إلى خلاصها ومنجاها.

إن مواقفك في جبهات القتال ليست سوى لحظات عارضة تفرضها ضرورات لا تملك لها دفعا.

أما أنت أولا وآخرا فلست إلا رسولا لستَ إلا مذكِّرا ونذيرا.

فإذا كنت الآن ترى السلاح نشوان في أيدي أعدائك، مثلوما مُهشَّما في أيدي أصحابك.

إذا كنت الآن تسمع قريشا تدق طبول الفرح، ولأصحابك يزرفون أنين الهزيمة.

إذا كنت الآن ترى إخوانك صرعى، لم تتركهم الكراهية العمياء جثثا هاجعة بل أبت إلا أن تمثل بها لتُرضى حقدها اللئيم المسموم.

إذا كنت ترى كل هذا فلا تجزع، لأنك لست ظافرا بقدر ما تربح من معارك بل بقدر ما تربح من قلوب!!

لست منتصرا بقدر ما تقتل من خصوم بل بقدر ما تحيي من أنفس، وبقدر ما تَهدي من ضلال.

من أجل هذا، انْسَ حديث المعركة ووقع الهزيمة، وتَذَكَّرْ عملك الرئيسي في هذه الحياة:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]

أهناك «إنسانية» أروع من هذه؟!

حتى وهو في قلب المعركة يتلقى حصادها لا تقول له الآية: قاتلهم بالتي هي أحسن، بل تقول له: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]

سبحان ربنا العظيم..

وتلك ظاهرة لا أعرف لها نظيرا في الدلالة على أن محمدا ﷺ لم يكن يصنع رسالته، إنما كان يتلقاها من لدن حكيم خبير.

والقرآن لا يفتأ يدعو الرسول إلى «التي هي أحسن».

ولا يفتأ يضرب له الأمثال التي تدعم يقينه وروح السلام لديه.

فهو يذكره بموسى وهارون حين أرسلهما الله إلى فرعون ذي الأوتاد، فقال لهما سبحانه:

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤]

وهو قبل أن يدعوه إلى الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة يذكّره بإبراهيم خليل الرحمن:

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي

ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ
إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣]

والقرآن كذلك يدعو الرسول إلى أن يعلم قومه وأمته والناس جميعا هذا السلوك الحاني البار.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ
يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٣
رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٣-٥٤]

بيد أن هذا النهج يحتاج إلى مصابرة شديدة ومُثابرة أشد، وهنا يدعو القرآن محمدا ﷺ ليصبر ويُصابر.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠]

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥]

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]

ويضرب له الأمثال أيضا بإخوانه الذين سبقوه على طريق الدعوة إلى الله، والذين استعانوا بالصبر والصلاة.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

إن القرآن يصوغ من عبارة «التي هي أحسن» مبدأً من أبهى وأعظم مبادئ العلاقات الإنسانية في البأساء والضراء معا.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

[الأعراف: ١٩٩]

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾

[العنكبوت: ٤٦]

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]

والرسول صاحب دعوة، ومُبَلِّغ رسالة. وهل غير الحوار الأمين وسيلةٌ للبلاغ وسبيل للإقناع؟ إنه لا سلطان له على ضمائر الناس.

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]

وليس من حقه بحال أن يُكْرِه الناس على أن يؤمنوا إيمانه، ويقتنعوا اقتناعه.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]

إن عليه أن يهتف بكلمة الله، ويجهر بالحق، فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها، دون أن يكره أحدا على هجر اقتناعه.

إنَّ عليه أن يصون إيمانه وإيمان أصحابه من وطأة الإغراء والهوى، ويحميه أيضا بكل وسائل الحماية من إرهاب الخصوم وعدوانهم.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]

﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ﴾ [النساء: ١٤٠]

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨]

ذلك هو المنهج الأمين العادل الذي يرسمه القرآن العظيم لرحلة الكلمة في عالم الرسالة والبلاغ.. حوار قائم على المنطق، باحث عن الحق، راغب في إسداء الخير..

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦]

والذي يخطئ الحقيقة اليوم لن يخطئها غدا . . ومع الأيام يراجع الناس أنفسهم، وتتكشف لهم معالم الطريق، ويفصل الله فيما اختلف العقول فيه .

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧]

وإلى أن ينبلج الفجر، ويتضح السبيل، فلكل رأيه وهداه .

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]

فإذا أسرف الخصوم على أنفسهم، وقالوا على الله الكذب وهم يعلمون، وبسطوا أيديهم بالسوء والعداوة ليصدوا عن سبيل الله من آمن وليحملوا الناس كرها على هجر إيمانهم بالله وبالحق، فلابد للحق- حينئذ- من أن يحمي نفسه ويمتشق سلاحه .

وعندئذ - لا قبلئذ - يرفع القرآن في وجه البأس بأسا مثله، فيقول :

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ [البقرة:١٩٠]

* * *



عن البسطاء الكادحين

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾



﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١-١١]

لم يكن من بين أمانيه - عليه السلام - أن يذهب من الدنيا بمال ولا بشهرة ولا بمجد.

إنما كانت أمانيه أن يَكْثُرَ عددُ الذين يهديهم الله به من الضلال.

كان منتهى آماله أن يلقي ربه الكبير في موكب حاشد حافل من الذين استجابوا لله وللرسول.. الذين استطاع أن يلوي أزِمَّة قلوبهم الضالة، ويكبح جماح شهواتهم المتمردة، ويغرس في قلوبهم مكان الشرك توحيدا، ومكان الجحود إيمانا، ومكان الكراهية حبا، ومكان الزَّيْغِ معرفة وفهما وبصيرة.

ولقد سلك إلى هذه الغاية كل سبيل، فثابَر، وصابر، ولاين القلوب القاسية، وبذل من ذات نفسه فوق حلم الحالمين وصبر الصابرين.

وكان وهو يدير بصره حول قومه يُبرح به الأسى من أجل أولئك الذين تخدعهم أباطيل الحياة، ويغرهم بالله الغرور.

وكان معنيًّا بعشيرته الأقربين . . وكان يرى كل قريش، ثم كل الناس، عشيرةً له وأهلا .

وكان يعلم أن أكثر العامة يتبعون كبراءهم، ومن ثم فقد طالما تمنى أن يهدي الله إلى الإيمان كبراء قريش وعِليتها .

إنهم إن هدوا وآمنوا جاء الناس على أثرهم سراعا راغبين، وتخلصوا من عقابيل الشرك والجهالة، وانطلقوا مع الدين الجديد نحو المصاير العظيمة الواعدة .

وإنه - عليه الصلاة والسلام - لجالس ذات يوم مع واحد من سادة قريش وكبرائها يحدثه عن الإسلام ويحبب إليه الإيمان، ويكره إليه الكفر، ويدعوه إلى عبادة الحي القيوم . . وإنه لكبير الأمل في أن يرق قلبه ويلين، فإذا تم ذلك يكون الله قد هدى رجلا تقتفي آثاره عشرات من الرجال .

وإذ هو يتحدث إليه يقبل عليهما (ابن أم مكتوم) واحد من فقراء المسلمين يتحسس الطريق بعكازته، فهو مكفوف البصر؛ ضرير .

ويقف على رسول الله عليه السلام يسأله بعض أمور الدين ويقول له : أرشدني يا رسول الله .

وكأنما أحس الرسول أن (ابن أم مكتوم) جاء في غير أوانه . . فإن نظرة واحدة من (السيد القرشي) إلى هذا المسلم الفقير المتسربل بأسماله المتواضعة ستحرك في أعماقه النفور من دين سيسوي بينه وبين هذا الأعمى الفقير، كما ستأخذه العزة بالإثم، فلا يبدي عن اقتناعه- إذا هو اقتنع - أمام واحد من العامة مثل ابن أم مكتوم .

ولعل الرسول رأى أن حديثه إلى السيد القرشي كان قد بلغ اللحظة الحاسمة التي تستسلم عندها قوى المقاومة، حيث أقبل ابن أم مكتوم آنئذ فقطع تسلسل الحديث، وقطع أيضا تسلسل الشعور الذي كان داخل نفس السيد القرشي والذي كان يتجه في طواعية صوب التفهم والاقتناع.

ولم يكن بد من أن يعرض الرسول عن ابن أم مكتوم، ويستأنف الحديث مع صاحب الحق فيه، بيد أن إعراضه عليه السلام كان مصحوبا بمظاهر الضيق وعدم الارتياح.

وهكذا لم يكد المجلس ينتهي حتى كانت الآيات الكريمة تتنزل على قلب محمد تؤاخذه على ما صنع، وتدير القضية في حوار سريع حاسم، يشعرك أن السموات كلها قد شغلت حينئذ بأمر هذا المسلم الفقير الضرير.

وعلى الرغم من أن الآيات تخاطب الرسول مباشرة، فإننا نراها تستعمل صيغة الماضي وتوجه الحديث إلى ضمير الغائب لا إلى ضمير المخاطب.. فهي لا تقول: عَبَست وتوليت.. بل تقول: عبس وتولى.

وكأنها تريد بهذا أن تُعلن أن الموقف الذي وقفه الرسول من ابن أم مكتوم ليس من طبيعته ولا من شيمته.

إنه يليق بإنسان آخر غير محمد أما هو فلا، ولهذا فإن ذلك الموقف كان دخيلا على طبيعته وخلقه وشيمته، ولهذا أيضا نرى الآيات كأنما تجرد من ذلك الموقف ذاته شخصا آخر تؤاخذه وتدينه وتقول: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢]

لذلك لم يكد الوحي ينتهي من تسجيل مأخذ العبوس والإعراض مستعملا ضمير الغائب حتى عاد ضمير المخاطب وهو يزكي جوهر الإيمان وجوهر الرسالة الكريمة. فتقول الآية الكريمة:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس :٣-٤]

لكأن القرآن يقول للرسول:

إنما أنت هاد ونذير..

إنما أنت مُزَكٍّ ومذكر.

وإنك لترفع راية الله وتدعو إلى كلمته.

والله لا يريد أحدا لثرائه ولا لجاهه، إنما يريد من يلقي السمع وهو شهيد.

يريد من يسارع إلى مغفرة من ربه، وبين جوانحه قلب سليم.

يريد الذين يرون في كلمة الله خلاص أنفسهم وخلاص مصايرهم، ويُقبلون عليها بروح مُشتاق.

أولئك هم أصفياؤه وأحباؤه.

أفإن جاءك منهم واحد يتعثر في خطاه، ويبحث عن هداه، تعرض عنه وتتولى وتمنح اهتمامك وحرصك «قارونا» من «قوارين» المال ووجها من عِلْيةِ قريش وزعمائها، جريا وراء قلبه الزائغ وأملا في خلاصه المسلوب.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ

﴿٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ٧-١١]

إن هذا الذي جاءك تسبقه إليه أشواقه وضراعاته وابتهالاته أحق بإقبالك عليه وسعيك إليه.

أفقير هو من المال، والآخر غنيٌّ؟

أضعيف هو في قومه، والآخر قوي؟

لا بأس..

فأولئك هم الذين يريدهم الله..

المتعبون، الذين يتلمسون الراحة..

التائهون، الذين يبحثون عن مرفأ.

الخائفون، الذين يبحثون عن مأمن.

المستضعفون الذين يبحثون عن ملاذ.

الشُّعث الغبر المدفوعون بالأبواب.

البسطاء الكادحون المالئون حياتهم بالعمل والعناء.

أولئك الذين من أجلهم - قبل سواهم - رُفِعت «رايةُ الله» في الأرض لتظلهم تحتها، ولتعلن قيام عالمهم وبعث أيامهم وزحف صفوفهم..

فلا تشغل نفسك بكل عتل مستكبر.

وأقبل بكل نفسك وكل شغفك وحبك على هؤلاء البسطاء الفقراء الوُدَعاء.

إن في داخل أجسامهم الضامرة الوَهْنانة قلوبا شامخة مؤمنة، أعطت

الله موعدا ليجدنها حيث يريد وساعة يدعو، وقالوا:

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾

[الممتحنة: ٤]

تلقى رسول الله من ربه هذا الدرس الأريب العظيم، فلم يعد أبدا يأبه بأولئك العِلْية الذين كان يرى في هداهم كسبا كبيرا لقضية الحق والخير والإيمان.

وعاد إلى الصفوف الخلفية يمنحها كل حرصه وحدبه وعنايته.

ولم يعد يقبل عليه (ابن أم مكتوم) في أي وقت وفي أي مكان إلا ويحتفي بمقدِمِه ويقول: «أهلا بمن عاتبني فيه ربي»!!

وحَذِق الرسول الدرس تماما لأن القرآن لم يزل يُذكره به دائما..

فذات يوم وهو جالس مع نفر من أصحابه الفقراء، فيهم صهيب وبلال وعمار وخباب مر بهم ملأٌ من قريش فقالوا للرسول:

يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا؟ ألا تجعل لهم يوما ولنا يوما فإنا نستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الضعفة والعبيد؟!

وجاءت آيات الله كالبرق تخطف أوهامهم، وتقول للنبي:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟

أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢-٥٣]

ولا يفتأ الوحي يذكره بهذا السلوك ويحضه عليه:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

ويذكره بأيام الله، وما شهدته من محاولات ذوي الثراء والبأس ليبعدوا عن نور الله عباده الفقراء، وكيف كانوا يعيرون أنبياءهم بمن سارع إليهم من المستضعفين.

فقوم نوح يقولون له:

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ [هود: ٢٧]

وألحَّ قومُه عليه كي ينحي عنه فقراءَ المؤمنين، فما كان جوابه كما قص القرآن الكريم إلا أن قال:

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩-٣٠]

ويمعن القرآن في خَضْدِ شوكة الصَّلِفين بمكانتهم، المزهوين بجاههم،

المستعلين بأموالهم ، فيضرب لهم مثلا يتلوه عليهم ليزدجروا ، كما يتلوه على الضعفة من المؤمنين ليزدادوا فرحا بما معهم من نعمة الهدى واليقين .

أما بطل ذلك المثال فهو قارون :

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ
وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ
أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ
وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ
أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ
أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ
مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن
ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ
ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ
أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ
ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠
فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ

يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾
وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ
ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ
أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ
﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨٣]

أكان القرآن بموقفه هذا يمجد الفقر ويتحدى الثراء؟ كلا، وإنما هو يرد الإنسان إلى جوهره وحقيقته، ويرفع قدره فوق كل مواضعات العرف الإنساني حين تضطرب في يد هذا العرف معايير القيم وحقائق الأشياء.

ففي كل زمان ومكان ينظر الناس إلى أهل الثراء والحظوة نظرة ملؤها التوقير والمهابة، بينما ينظرون إلى أهل الخصاصة والفقر نظرات تتراوح بين الرثاء والازدراء.

والقرآن يواجه هذا الميزان المختل المضطرب بمنطق صارم حاسم.. منطق يستمد صدقه من إدراكه لحقيقة الإنسان.

هذه الحقيقة المتمثلة في أنه - أي الإنسان - حامل مشيئة الله في الأرض وهو بحكم كونه «خليفة الله» كما ذكر القرآن فإن وظيفته في هذا الكوكب تحقيق الغرض الجليل الذي ارتبطت - في ضمير الأزل - أسباب وجوده بحتمية تحقيقه.

إن النوع الإنساني لم يوجد لتنشطر صفوفه إلى أغنياء وفقراء ولا إلى

سادة وعبيد، ولا إلى أقوياء وعجزة، ولا إلى رعاة وسوائم. . إنما وجد ليتحرك صفا واحدا داخل حظوظ متكافئة من القدرة والسيادة والكفاية.

يرفض أن تُقرِّر «شهادات الميلاد» مصاير الناس وتحدد أقدارهم!!

وهو إذا كان يعلن أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق فإنه لم يكن يعني أبدا أن هناك ناسا خلقوا ليُعْلَفوا وآخرين خُلِقوا ليُتْرَفوا!!

لم يكن يعني أبدا أن أقدار الناس في الحياة يحددها عدد الأموال التي في جيوبهم وخزائنهم، إنما يحددها نصيب كل فرد من الجوهر الإنساني ذاته.

وما الجوهر الإنساني هذا؟

إنه الحقيقة الحرة التي انتشرت في ملايين الأجيال من البشر تعبر عن نفسها وتحقق ذاتها.

إنه العمل الدائم في صدق وشوق وذمة لتحقيق الخير العام والكمال العام، وتمكين جميع البشر من أن يصيروا «مواطنين سعداء» في «مدينة الله الفاضلة».

ونصيب كل فرد في هذا العمل الجامع، وهذا السعي المشترك وهو الذي يحدد قدره ومكانه. .

لا الفقر ولا الغنى. . لا الصحة ولا المرض. .

لا البياض ولا السواد. . لا السيطرة ولا التبعية.

لا شيء من ذلك كله يحق له أن يتحكم في أقدار الناس وفي مصايرهم.

إنه العمل وحده.. العمل الصالح الذي يستمد خصائصه من جوهر الإنسان وجوهر رسالته.

فالفقير الذي يحمل في هذا العمل عبئه عظيم وإن قعد به فقره.

والثري الذي يتخلف ويخلد إلى الدعة صغير وإن قفز به ثراؤه.

فإذا تخلف الفقير وتقدم الثري فقد باء الأول بالإثم ولم يشفع له فقره وذهب الثاني بالخير ولم يقعد به ثراؤه..

فالعمل السديد النافع من أجل خير النفس وخير النوع هو المعيار الذي يوزن به الناس.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨]

و(قارون) الذي عرضت الآيات السالفة نبأه، لم يضرب مثلا للشر بسبب ثرائه، بل لأنه بغى على الناس بهذا الثراء، فَعُلُوُّهُ وفسادُه هما اللذان ساقاه إلى مصيره الوخيم، وليس ثراؤه وغناه.

من أجل هذا ختم القرآن الكريم قصة قارون بهذه الآية الباهرة:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]

ومن أجل هذا أيضا يضرب المثل في القرآن أكثر من مرة، فتقول آياته الصادقة:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن

رَزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥-٧٦]

فالذين يضعون ثروتهم والذين يضعون طاقتهم في خدمة الخير العام هم المثل الطيب والأعلى في هذه الحياة. أما الذين ينسحبون من تبعاتهم تجاه هذا الخير العام فأولئك هم عبيد العجز ومماليك المهانة . . أثرياء كانوا أم فقراء سادة كانوا أم تبعًا.

ذلك هو معيار التفوق الذي يرسمه القرآن.

وهو حين يقول:

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٢١]

فتلك أفضلية العمل والدرجات التي يتبوأها الناس بما يبذلون من جهد شريف لتحقيق أغراض شريفة.

وإن القرآن الكريم ليصحح في أفهام الناس معنى التفوق والتبوء إذ يقول:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ

فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨]

أجل . . ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ [البقرة:١٤٨]

هذا وحده المعراجُ الذي رفعه القرآن للناس كي يصعدوا عليه إلى كل كمال ميسور وإلى كل رفعة مأمولة .

وهذه وحدها السمة المميزة للذين تؤهلهم جهودهم العادلة لأن يأخذوا مكانهم مع بناة الحياة .

من أجل إقرار هذه الحقيقة عاتب الله رسوله حين لوى اهتمامه - ذات مرة - عن مؤمن فقير مؤثرا عليه واحدا من السادة طمع الرسول في إسلامه .

وعلى الرغم من صدق النية ونبل المقصد ، فإن القرآن لم يرض لهذه الواقعة أن تمر دون أن تكون موضع تساؤل منه ومؤاخذة ، ودون أن يقرع عندها الأجراس معلنا حقوق «**المواطن العادي**» ومقدسا كرامته .

ولم يشأ القرآن لهذه الواقعة أن تمر دون أن يسجل في هذه الآيات وفي آيات أخرى مماثلة ، المعايير السديدة العادلة التي تحدد أقدار الناس وتجعل التفاضل بينهم موصول الأسباب بهذه المعايير نفسها ، لا بما تواضعوا عليه من زخرف الحياة وغرورها .

وعلى الرغم من أن الرسول عليه السلام كان بما فطره الله عليه من خلق عظيم آخذا بتلك المعايير العادلة ، وآخذا مكانه دوما مع البسطاء الفقراء الودعاء . . على الرغم من هذا ، فإن الله سبحانه وتعالى لم يدع هذه الهفوة تمر دون أن يجعل منها درسا يملأ رنينُه الصادق وَعْيَ الناس جميعا

عبر الأحقاب والأجيال .

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ
۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ
تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ
يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس :١-١١]

إن القرآن يريد أن يهدي الناس إلى عالم يقوم الإخاء فيه مكان التمايز، والحب مكان الكراهية، والتناصر مكان التربص .

عالم يكون الولاء فيه للحق لا للمنفعة، وللجوهر الباقي لا للأغراض الزائلة .

وإذا كان الإنسان محط الرجاء في حمل كل أمانة جليلة من أمانات الحق والحياة، فيجب أن يتحرر هذا الإنسان من كل ضغط يعوقه .

وإذا كان «الإنسان» أو «الإنسانية» هما مجموعة أفراد، فلا بد إذن من أن يتحرر كل فرد من كل ضغط .

ومن شر هذه الضغوط الإحساس بالدونية . إحساس الفرد - أي فرد - بأنه ضئيل وبأنه همل وبأنه شيء غير منظور وغير مذكور .

ولهذا لم يكد القرآن يرى فردا من الأمة يتعرض لهذا الموقف حتى سارع إلى نجدته، ووقف بجانب كرامته وحقه، يذود عنهما في إصرار وجلال ويرفض أن ينال منهما شيء حتى لو كان الثمن هدايةَ عظيمٍ من عظماء قريش لعله إن أسلم دخل الناس على أثره في الدين أفواجا .

ويُراجِبُ القرآن هذه الدائرة، ويهتف هتافا قدسيا بكل حقوق «الفرد العادي» وحقوق الناس «جميع الناس» فينفخ فيهم من روحه عزة وكرامة، ويدعوهم لينهضوا مرفوعي الجباه، ويقول لهم:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]

ويذكرهم بأنهم مع الله على موعد دائما:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران:١٥٢]

ثم يرفع أقدارهم إلى المنتهى فيقول:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥]

ثم يرفعهم إلى مستوى المسئوليات العامة، ويرفعهم إلى مستوى القيادة، ومع من؟ مع رسول الله الذي اختاره الله واصطفاه فيتلقى الرسول نفسه أمر القرآن بألا يبرم من دون الناس أمرا بل شاورهم ويستفتيهم:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]

ويمهد القرآن لهذا الأمر بالشورى تمهيدا تناهى في الحكمة والروعة فهو يقول:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]

تصوروا رسولا ينزل عليه الوحي من ربه، ثم يدعو أناسا عاديين فقراء بسطاء ويسألهم: ما رأيكم؟ وبم تشيرون علي؟ ثم ينزل على رأيهم!!

ألا يرفع هذا السلوك من أقدار الناس أمام أنفسهم؟

ألا يمنحهم ذلك ثقة كاملة بأنهم سادة وبأنهم الأعلون؟

ألا يدفعهم ذلك إلى الإيمان بأنهم أهل للرسالة الجليلة التي حملوها، وبأن مسئوليتهم عن حفظها لا تقل عن مسئولية الرسول نفسه؟

بلى.. ولقد مضى الرسول يلبي دعوة القرآن ويستشيرهم في كل خطوة..

استشارهم يوم «بدر» فأجابوه وقد رأوه يفوضهم في تقدير الموقف كله:

يا رسول الله والله لو خضتَ بنا هذا البحر لخضناه معك.

وشاورهم يوم أحد.. وكان رأيه ألا يخرج إلى العدو وكان رأي المسلمين أن يخرجوا فنزل على رأيهم.

وشاورهم يوم الخندق.. وكان من رأيه أن يصالح الأحزاب على ثلث ثمار المدينة وعارض رأيه بعضُ المسلمين فتخلى عن رأيه ونزل على رأيهم.

بل شاور أصحابه في أخص شئونه. فيحدثنا الإمام (ابن كثير) أنه حين شاع حديث الإفك وتعرضت أم المؤمنين (عائشة) رضي الله عنها لمؤامرة دنيئة أرادت أن تنال من سمعتها الطاهرة أملا في إيذاء الرسول وإحراجه، دعا النبي أصحابه وقال لهم:

أشيروا علي معشر المسلمين فوالله ما علمت على أهلي من سوء!!

والقرآن العظيم يكاد يتركنا نفهم أنه يعلق على الشورى أكبر الآمال في تحرير الناس من الهوان فهو في آية أخرى من آياته يقرن الشورى بالإيمان والصلاة، ويجعلها مثل الإيمان ومثل الصلاة واجبا على الناس جميعا وليست فرصة لصفوة أو لطائفة، فيقول في وصف المؤمنين :

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]

فليست الشورى ترفا . .

وليست فرض كفاية ؛ ينوب بعض الناس في أدائه عن بعض .

بل وليست مجرد حق يملك أصحابه أن يتنازلوا عنه .

إنما هي صفة ثابتة تأخذ مكانها في الآية إلى جوار الصفات الأساسية للمؤمن، كالإيمان بالله وكالصلاة .

بل إن هذا المقطع من الآية، المقطع الذي لا يزيد عن كلمات ثلاث هي : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ كانت أهميته لدى القرآن بالغة إلى حد أنه سمى السورة التي تضم هذه الكلمات الثلاث باسم «الشورى»!!

سورة تنتظم ثلاثا وخمسين آية ، ليس بها عن الشورى سوى هذه الكلمات الثلاث، ثم يعطيها القرآن سمتها ويخلع عليها اسمها .

ومغزى آخر له دلالته الكبرى :

فسورة الشورى هذه مكية نزلت في مكة، وفرض على المسلمين الشورى وهم يقيمون يومئذ في بلد يعج بخصوم أقوياء .

وكان القرآن يومئذ معنيا ببناء «الشخصية المؤمنة» فهو إذن لا يرى في الشورى سبيلا للوصول إلى القرارات الحكيمة التي تتطلبها سلامة الجماعة فحسب، بل ويراها قبل هذا سبيلا- أي سبيل- إلى بناء الفرد القوي وشحنه بكل قوى الثقة والتهلل والإبداع.

على هذا النسق الباهر- بدءا من: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] إلى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] مضى القرآن الكريم يرفع من قدر «المواطن العادي» وينشئ له عالمه الكبير ويعده لتسلم الراية.

مضى يبشر بمساواة شاملة صادقة، ليس لها سقط متاع، ولا نفاية أتباع.. مساواة لا غبن فيها، ولا ضراوة لها.

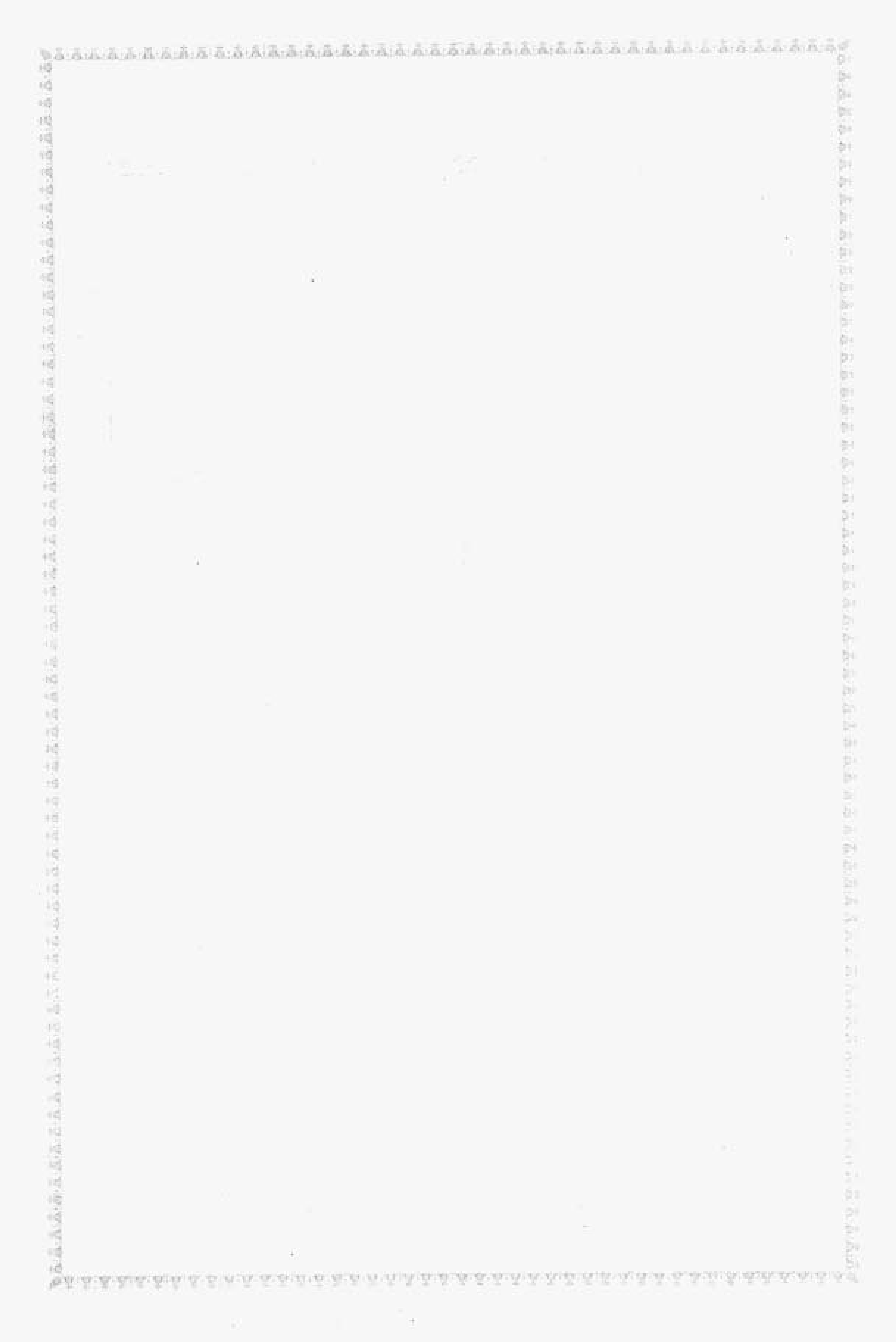
ومن بلال وصهيب وخباب وإخوانهم البسطاء الودعاء أسس القرآن أمة جاءت في أوانها لتصحح موازين الحياة وتقوم اعوجاجها.

* * *

الفصل الرابع

عن اهتماماته الإنسانية

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾



ذات يوم، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يجتاز شوارع المدينة ومعه بعض أصحابه، سمع صوتا يناديه من وراء : يا عمر.

فالتفت عمر فإذا سيدة عجوز تقبل عليه؛ ولا تكاد تبلغه حتى تستوقفه قائلة:

رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة.

ويقف أمير المؤمنين أمامها خاشعا، وتتحدث إليه فتقول:

«يا عمر ، عهدي بك وأنت تُسمَّى (عميرا) تصارع الفتيان في سوق عكاظ فلم تذهب الأيام حتى سميت (عمر) ثم لم تذهب الأيام حتى سميت (أمير المؤمنين) فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خَشِيَ الفوت»!!

وانبرى إليها أحد أصحاب عمر قائلا: لقد اجترأت على أمير المؤمنين.

فجذبه عمر من يده وقال له:

«دعها فإنك لا تعرفها، إنها (خولة بنت حكيم) التي سمع الله قولها من فوق سمواته وهى تجادل الرسول في زوجها وتشتكي إلى الله، فعمر والله حرى أن يسمع كلامها»!!

فمن كانت هذه السيدة العجوز التي استوقفت أمير المؤمنين في

الطريق لتقول له : كنت (عميرا) فأصبحت (عمر) . . وكنت (عمر) فصرت (أمير المؤمنين)؟!

إنها السيدة التي أفرد القرآن لها سورة أسماها سورة **«المجادلة»** .

ولكن قبل أن نطالع قصتها ما شأن القرآن بها؟

إن شأنه بها ومعها هو شأنه بمشاكل الناس التي كان يتتبعها في يقظة ودأب ورحمة . . المشاكل التي كان يتتبعها من أكبرها إلى أضألها باهتمام ودود ويرسم على ضوئها مبادئ الشريعة والسلوك .

وسوف نرى كيف أنجز القرآن مهمته هذه .

ولنعد إلى النبأ الذي بدأنا به الموضوع . . **«نبأ المجادلة»** التي أصغى إليها أمير المؤمنين في خشوع ؛ أن الله من قبلُ سمع حوارها وشكواها .

ذات يوم كان الرسول عليه الصلاة والسلام جالسا في فناء داره ومعه زوجته عائشة . حين قدمت عليهما سيدة تضطرب خطاها ، وتضطرم أنفاسها .

إنها خولة بنت حكيم زوجة أوس بن الصامت جرى بينها وبين زوجها نقار فحرمها على نفسه قائلا : أنت علي كظهر أمي .

وكان هذا أول ظهار يقع في الإسلام فلم تدر الزوجة إن كانت بهذا الظهار قد طلقت أم هي غير طالق فحملت همها ، وأسرعت إلى رسول الله قالت :

يا رسول الله زوجي (أوس) أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني .

فأجابها رسول الله قائلا : «ما أراك إلا قد حرمت عليه».

وعادت «خولة» تحاور الرسول وتقول :

إن لي صِبْية إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا وعاد الرسول يقول :

«ما أراك إلا قد حُرِّمتِ عليه». وبكت «خولة» وقالت: إلى الله أشكو أمري وأمر صبيتي ومضت تبدئ في شكواها وتعيد ورسول الله يسمع صامتا .

وفجأة أخذه مثل الرُّعَواء وأظلته السكينة التي كانت تأخذه حين ينزل القرآن على قلبه فيذهب في استغراق بعيد.

وأومأت عائشة إلى الزوجة أن اصمتي.

وبعد لحظات من الصمت الحكيم حرك الرسول لسانه الصدوق بآيات من القرآن الكريم :

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة :١-٤]

وحين أتم الرسول تلاوة الآيات أرسل في طلب الزوج ، فجاءه يسعى ، وسأله الرسول :

أتجد رقبة تعتقها؟

قال : لا . .

قال الرسول : أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟

قال الرجل : والذي بعثك بالحق إني إذا لم آكل المرتين والثلاث يكاد يعشو بصري .

سأله الرسول : أتستطيع أن تطعم ستين مسكينا؟

قال : لا إلا أن تعينني .

فأعانه الرسول عليه السلام بثلاثين صاعا .

عندما ظاهر الرجل من زوجته قائلا لها : أنت علي كظهر أمي ولم يكن لهذه الواقعة سابقة في الإسلام، سارع القرآن إلى تبيان حكمها .

ولقد جاء حكمه زاجرا لكل من يحاول أن يجترح مثل هذا السوء فعروة الزواج عروة وثقى لا يريد الله لها أن تترنح تحت رحمة النزوات الطارئة .

وإذا كان «**الطلاق**» أبغض الحلال عند الله ، فماذا يكون الظهار وهو أشد عبثا بالحياة الزوجية ، وأشد تهديدا لها؟!

لقد جعل القرآن كفارته موجعة حتى يستقيم الأزواج على الجادة .

وحين نعود إلى جوهر الواقعة التي نحن بصددها نجد ما يبهر اللباب حقا . فالمرأة لم تكد تحمل بثها وشكواها إلى رسول الله حتى خف القرآن لنجدتها مسجلا كلماته وحكمه في مشهد حافل . . ثم تاركا بين سوره المباركة سورة تحمل قصة (البطلة) التي أثارت هذا الموقف كله بحوارها تلك هى سورة المجادلة .

ولسوف نجد هذا الاهتمام يتجلى ويتألق في كل مناسبة فلا يكاد «**يسأل سائل**» حتى يتنزل القرآن بالجواب . ولا يكاد «**يتأزم أمر**» حتى يتقدم القرآن بالحلول ولا يكاد «**يأتمر متآمر**» حتى يدهمه القرآن بأضوائه الكاشفة فيكشف خبثه .

ومن مشاكل السلوك العابرة ، إلى مشاكل المجتمع الغامرة ، كان القرآن يتنزل دائما وحثيثا بحلوله السديدة .

كان أصحاب رسول الله يتزاحمون حول مجلسه ، وإذا سبق أحدهم إلى هذا المجلس ظافرا بمكان فإنه يضن به ولا يتخلى عنه تحت وطأة أي اعتبار .

فهذه الرقعة الصغيرة التي يشغلها المسلم بقعوده بين يدي الرسول تساوي عنده عرشا بل هي خير وأبقى من كل العروش فكيف يتركها لغيره مهما يكن هذا الغير؟

وذات يوم قدم جماعة من البدريين الذين شهدوا غزوة بدر وكانوا بصفتهم هذه موضع رضاء الله وتقدير رسوله فلم يجدوا لهم في مجلس الرسول مكانا دانيا فظلوا وقوفا حتى شق على رسول الله عليه الصلاة والسلام وقوفهم ولم يتكرر ذلك بعد فإن القرآن سرعان ما جاء يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]

ويهاجر الرسول إلى المدينة ويؤمر أن يجعل قبلته في الصلاة «بيت المقدس»، ويمتثل الرسول أمر ربه، طاويا صدره على حنين متوقد ومشبوب إلى «الكعبة» وإنه ليقلب وجهه في السماء وكأنه ينتظر منها- على شوق- كلمة تشفي صدره؛ ويقر بها حنينه. . كلمة تأذن له أن يتخذ من الكعبة قبلة لصلاته ويتنزل القرآن:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ﴾ [البقرة: ١٤٤]

ويتخذ اليهود هذا التحول مدعاة للتهجم على الرسول وإشاعة

الشكوك والريب وبث الفتنة بين المؤمنين.

ويطرحون هنا وهناك أسئلتهم الخبيثة: لماذا غير محمد قبلته؟

ويسارع القرآن ليقمع بمنطقه المبين مكر الماكرين ويقول:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:١٤٢]

ويتساءل المؤمنون في قلق عن مصير إخوانهم الذين ماتوا وهم يصلون إلى القبلة الأولى فيطمئنهم القرآن قائلا:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣]

ويسأل الرسولَ أصحابهُ عن الخمر والميسر فتنزل الآيات:

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة:٢١٩]

وبهذه الآية هيأ القرآن الأذهان لخطوة تالية لم يلبث أوانها أن جاء فنزلت الآية:

﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]

وبهذه الآية أيضا اقترب القرآن من كلمته الآخيرة في شأن الخمر والميسر فما إن حل الميقات المناسب لهذه الكلمة حتى قالها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ

وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]

وكان الرجال الذين يرعون في أكنافهم يتامى يخلطون أموالهم إلى أموالهم، فلما نزلت الآية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]

تأثم أولياء اليتامى وعزلوا أموالهم وحدها بل وعزلوا طعامهم وشرابهم وذهبوا في التحوط مذهبا بعيدا سبب المتاعب لهم ولليتامى أنفسهم، فسارع القرآن يدلهم على الطريق الوسط، ويأمرهم بالقصد حين سألوا الرسول:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]

وإن القرآن ليتتبع حاجات الناس في ذلك المجتمع الذي ينشأ باسمه وتحت رايته، ويتتبع أسئلته جميعا، فيجيب عنها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٩]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾ [الأنفال: ١]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٥]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾ [المائدة: ٤]

وحتى هذه أيضا:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

وليس في مشاكل الناس ما هو صغير وما هو خطير، فأمام كل مشكلة، مهما تكن ضئيلة، يتحرك القرآن بكل قدراته وكل مسئولياته.

وإذا كانت المشكلة واقعة حال خاصة، لم يعالجها داخل هذا الواقع فحسب، بل يضعها تحت المجهر، حتى إذا رأى كل مضاعفاتها المحتملة عالجها العلاج الشامل القيم، وجعل من علاجه هذا قانونا عاما وشِرْعةً ومنهاجا.

غاضب رجل امرأته ذات يوم وأراد أن يكيد لها ويغيظها فقال والله لا أطلقك أبدا ولا آويك أبدا.

فسألته الزوجة: وأنى لك هذا؟

قال: أطلقك حتّى إذا أوشكت عدتك على التمام راجعتك، ثم أطلقك.. وهكذا.

فشكت الزوجة إلى رسول الله. وانتظر الرسول هُدَى ربه، فنزل القرآن بهذه القاعدة العامة:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩]

ثم أدار القرآن نوره على القضية كلها فذهب ينظم الحياة الزوجية

ويحفظ للمرأة كل حقوقها إذا رأى الزوج فراقها فيقول :

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة :٢٢٩]

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء :٤]

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ [البقرة :٢٣١]

وهذه عظمة القرآن حقا . فهذا الكتاب الذي يشغل نفسه بأسمى القيم وأخطر القضايا لا يجد بأسا- أي بأس- في أن يعطي اهتمامه- وبنفس الدرجة للمشاكل العارضة التي قد تسبب للناس بعض الألم أو بعض الحيرة .

الكتاب الذي يتحدث عن الله الواحد الأحد، ويتحدث عن المصير، وعن الدور الجليل الخالد الذي اصطفى الإنسان لأدائه على هذه الأرض . . القرآن الذي يتحدث عن هذه القضايا الكبرى لا يستنكف عن إلقاء سمعه لمن ذهبوا يسألون عن المحيض، ثم يشغل نفسه بهذا السؤال، ويسارع بالجواب :

﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾ [البقرة :٢٢٢]

ونظرته إلى الأشياء مفعمة دائما بالجلال والحكمة وهو ينفذ إلى اللباب المستَسِرّ الذي لا تقع عليه العين وسط الزحام .

فهو - مثلاً - كي لا تضار الطفولة الغريرة الغضة بأي خلاف ينشأ بين الوالدين، نراه يفرد لحقِّها في الرضاع بعض آياته :

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٣]

ألا فلننظر مرة أخرى هذه الآية : ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ [البقرة:٢٣٣]

إن الفصال هنا يعني الفطام وفطام الرضيع قبل عامين مسألة تشغل القرآن تماما كما تشغله قضية التوحيد والإيمان!!

وهو يشترط إذا كان الفطام قبل عامين أن يتم عن تراض من الأبوين وتشاوُرٍ حتى يُوَفرَ بهذا للرضيع كل حماية ممكنة.

هذه رعاية فذة خارقة ولقد كان الرسول الذي يتنزل عليه القرآن يعيها جيدا. من أجل هذا قال عن ولده إبراهيم وهو يبكيه :

«إن ابني مات على الثَّدْي وإن له مُرضِعًا في الجنة».

لكأنَّ حق الرضيع في اللبن حق مقدس غير مَجْذُوذٍ، فحتى إذا مات

قبل أن يستكمل أجل رضاعه كان من حقه أن يستكمله في فرصة أحلى وأغلى . . في الجنة!!

لقد أعطى القرآن هذه القضية اهتماما فائقا، وفي أكثر من سورة وفي آيات كثيرة أخذ يقرر حق الرضيع في الثدي الحنُون.

وإن مغزى هذه العناية - كما أسلفنا - يتمثل في أن الكتاب الذي يعطي كل هذا الاهتمام لأمور يبدو أنها خارجة عن موضوعه، هو كتاب كريم جاء يهتف بالهدى ودين حق. . جاء يؤسس وطنا جديدا للعقل وللروح وللضمير. . جاء يختم الرسالات والأديان فما باله يشغل نفسه بالمرضعات والرُّضعاء؟!

حين أتأمل هذا المغزى الباهر أجد نفسي أمام جلال فريد.

وهو كذلك يعني كل العناية بالمترمّلات اللاتي غيَّب الموت أزواجهن متى تنتهي عدتهن؟ متى يصرن في حِلٍّ من الزواج إذا أردن؟ ويعنَى بالمطلقات بعد زواج، وبالمطلقات من قبل أن تمسوهن.

ويكف بأس الجاهلية عن الأطفال الذين يقتلهم آباؤهم خشية الإملاق:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]

وعن البنات اللاتي كان نصيبهن الوَأْدُ والدّسُّ في التراب:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى التُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]

وحين يرى القرآن العظيم فاشية الربا تفشو «والفائدة» المبهظة تَلْفَحُ عافية الناس وتهرأ حياتهم، يرسل آياته المشرعة:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰاۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]

قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰاۗ﴾ [البقرة: ٢٧٥]

حُجَّة دَاحِضة أرادوا بها أن يُبرِّروا جريمة الاغتيال التي يغتالون بها حياة الناس تحت ضغط العِوَزِ والحاجة، فيَجْبَهُهُم القرآن بالحُكم الحاسم:

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ﴾

ثم يتبع هذه الآية بآيات أخرى:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٦-٢٧٩]

آيات رادعة قارعة يضمنها القرآن كل غَيْرَتِه على الضعفاء، وكل نقمته على مصَّاصي الدماء.

من أجل هذا، لم يكد المسلمون يرون قرآن الله يحرمه على هذه الصورة الرهيبة حتى سارعوا إلى نبذه عنهم، ومن كان منهم يتعامل به قبل تحريمه وضع كل ما كان له فيه، واسترد محض ماله لا غير، وحتى رأس ماله هذا راح يُطهِّره بفيضٍ من الصدقات والإنفاق على المعسرين.

كان القرآن يتتبع آلام الناس فيفندها، وجراحاتهم فيضمدها ومشاكلهم فيقول فيها قولا بليغا.

كان كأنما عينه على كل حركة وكأنما أذنه على كل همسة، فلا يكاد يسمع أنينا إلا خَفَّ بالنجدة ولا سؤالاً إلا سارع بالجواب، ولا يكاد يرى عَثْرةً إلا بادرها بالهدى، ولا ظلمة إلا بددها بالضياء.

كان دائما:

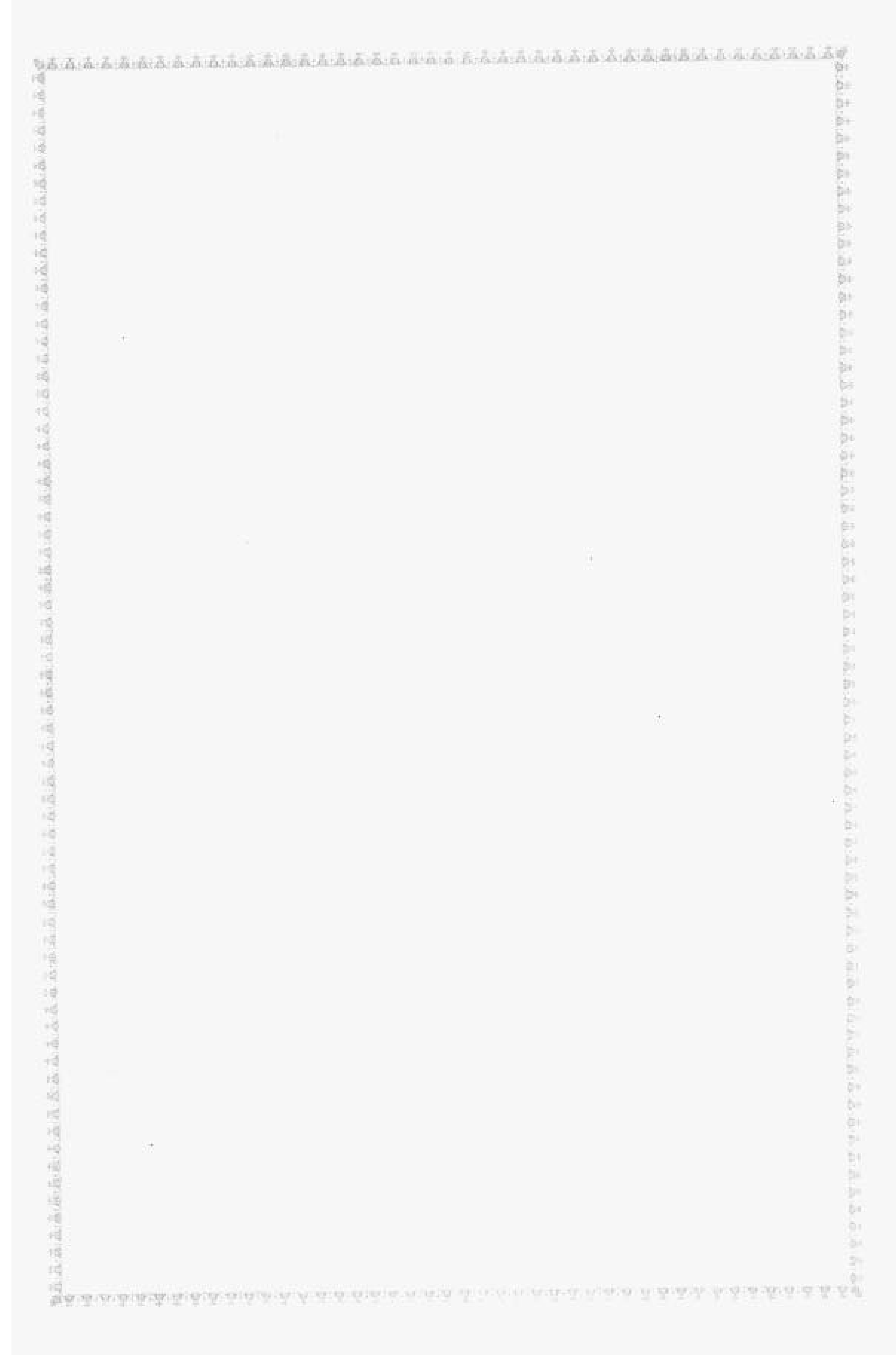
﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]

* * *

الفصل الخامس

عن وحدة الدين

﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾



منذ بدأ القرآن يتنزل إلى أن أتم حديثه وبلغ ختامه، وهو حريص على أن يبث في وعي الناس أنه يخاطبهم جميعا، وينشد الخير لهم كافة .

ولقد دعا الرسول أول ما دعاه إلى أن ينذر عشيرته الأقربين .

ثم أمره أن ينذر أم القرى - مكة - وما حولها .

ثم دعاه ليحمل مسئولياته تجاه البشر كلهم مذكرا إياه أن هذا القرآن الذي يتنزل عليه ليس كتاب قبيلة ولا كتاب أمة إنما هو ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف :١٠٤]

ولما هال الرسول ضخامة العبء ولعله ساءل نفسه كيف سينقل هذه الآيات والهدى إلى العالمين، قال له القرآن :

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى :٤٨]

ولقد صدق الله وعده، وحقق القرآن نبوءته، فسارت آياته مسير الشمس في كل الدنيا وكل الأجيال .

والقرآن الذي جاء ينادي «العالمين» يعلم أن من قبله كُتُبًا، وديانات، ورُسُلاً، ومؤمنين .

ولم يكن له بد من أن يبدأ دعوته العميقة الشاملة ببيان مكانه من تلك

الكتب والرسالات ومكانها منه .

ولقد أعلنها واضحة مبينة أنه ليس بِدْعًا من الكتب، وأنه لا يبدأ نهجا جديدا لم تعرفه الحياة من قبل، إنما يستأنف الرحلة المباركة التي بدأتها كتب سابقة وأنبياء سابقون .

إن القرآن وإن كان ينسج خيوط دعوة جديدة إلا أنه إنما ينبعث من ضمير الرُّشد الأول، وإنما يحمل راية إبراهيم وموسى وعيسى، ويبلغ بلسان عربي مبين نفس الحجة البالغة التي صَدَحَتْ بها من قبل التوراةُ والإنجيلُ .

وهكذا خاطب القرآن الرسول فقال :

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]

نحن الآن أمام غرض من أجلّ وأسمى الأغراض التي زكَّاها القرآن .

هذا الغرض الجليل الباهر يتمثل في أن هناك دينا واحدا وليس ثمة أديان شتَّى .

ألا فلنمض مع هذه السطور من البحث في أناةٍ وانتباهٍ كبيرين، فهنا سيطالعنا القرآن الكريم بأعظم محاولاته وأسماها .

إنه يبدأ بالرسول وبالذين آمنوا معه فيؤكد لهم هذه الحقيقة يُركِّز عليها أبصارهم وبصائرهم :

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]

ويزيد هذا تبيانا فيقول :

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى :١٣]

ويعلن احترامه وتوقيره للكتابين الكبيرين اللذين حملا الرسالة من قبله : التوراة والإنجيل ، فيقول :

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة :٤٦]

ويبارك المؤمنين بعيسى ويحسن وصفهم قائلا :

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد :٢٧]

ولكي لا تضيع معالم الوحدة الدينية ، وتتقطع أواصر الرحم والقربى النابضة في كل الرسالات والكتب ذهب القرآن يقاوم الذين يحرفون التوراة والإنجيل وما أنزل من عند الله . . وناداهم :

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران :٧١]

ولكنه وهو يقاومهم يحرص على ألا يسلك تجاههم سلوكا يزيد من حدة الخلاف ويصيب **«وحدة الدين»** بأذى فهو يبادر ويعلن أن ليس أهل الكتاب جميعا ممن يلبسون الحق بالباطل ، ولا ممن يحرفون الكلم عن

مواضعه، بل إن فيهم الأبرار الصادقين:

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤]

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]

وحتى أولئك الذين يحرفون الآيات ويقيمون الصعاب والمتاعب أمام القرآن من أهل الكتاب، يوصي القرآن بهم خيرا فيقول:

﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

إنه حريص على أن يقرر «وحدة الدين»، فأولئك الذين آمنوا بكتاب واتبعوا رسولا ليسوا سوى إخوة أشقاء لكل المؤمنين في كل الأزمان والأيام والأجيال.

وهو يوصي المؤمنين أن يقرروا هذه الحقيقة ويهتفوا بها دوما. حتى حين يجادلون أهل الكتاب عليهم أن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا

وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

والقرآن يدعو أبناءه إلى اعتناق «وحدة الدين» ويجعل الإيمان بها جزءا من صميم العقيدة والإيمان. هكذا تُفصح الآيات السالفة، وهكذا تفصح هذه الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]

وهو يصف المؤمنين بأنهم:

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]

وبعد أن يُرسِيَ قواعد هذه الوحدة في قلوب المسلمين يذهب إلى أهل الكتابيْن الكبيرين - التوراة والإنجيل - ليعالج التمزُّق الذي جنَوْا به على إيمانهم. ويبدأ القرآن فيعلن عجبه كيف يختلف الذين يتلون كتبا مقدسة، مصدرها جميعا واحد وغايتها كلها واحدة:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣]

ثم يسارع فيسألهم: لماذا يكفرون بمحمد؟

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

ولماذا يكفرون بالقرآن وهو مصدق لما معهم من كُتب، وداعٍ إلى احترامه والإيمان بها؟!

ولماذا يكفرون بالإسلام إن كانوا مؤمنين؟

إن الإسلام ليس عنوانًا على طائفة معينة من الناس؛ بل كل دينٍ إسلام، وإبراهيم أبو الأنبياء جميعًا كان دينه الإسلام.. وكل ذَرارِيه مسلمون.

فالذين كتابهم التوراة، والذين كتابهم الإنجيل، لا بدَّ إذن في تقدير القرآن أن يكونوا مسلمين، لأن «إبراهيم» الذي جاء موسى وعيسى ومحمد على عقبه وساروا على نهجه كان أول المسلمين.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨]

فالقرآن إذن لا ينشئ دينا جديدا، إنما يبعث من جديد دين إبراهيم.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]

وهو يرفع نفس الراية.. راية التوحيد، ويعيدها إلى مكانها الأعلى، ويختار كلمة «الإسلام» لا لِيَميزَ بها قومًا من قوم، ولكن لأنها العنوان القديم لتراث إبراهيم.

وإبراهيم نفسه أول من سمى الدين «إسلاما».

ومفهوم كلمة إسلام تتسع لكل مؤمن في كل زمان.

فالمسلم عند القرآن هو مَنْ:

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]

ولهذا، فالقرآن في حواره مع أهل الكتاب يعجب ويتساءل لماذا اختلفوا وتقسموا إلى «يهود» و«نصارى»!

أليسوا جميعا أبناء إبراهيم؟

وإذن فلماذا لا يسيرون على هُداه؟

لماذا يقاتل بعضهم بعضا، وتقول اليهود: ليست النصارى على شيء، وتقول ال: نصارى ليست اليهود على شيء؟!

ولماذا، والفريقان أهل كتاب يجادلون ويناوئون أهل القرآن وهم لهم إخوة؟

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]

ويسألهم القرآن أيضًا: لماذا وأنتم أبناء إبراهيم تقاومون النبي الذي جاء يبعث مِلَّته ويحيي عقيدته؟

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ

خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]

إن الدين الذي جاء به موسى، والذي جاء به عيسى، والذي جاء به محمد، هو في حقيقته دين واحد، ما دام الكل أبناء إبراهيم.

وهذا الدين الذي بدأ بإبراهيم، ثم حمل أمانته أنبياء كثيرون في مقدمتهم موسى والمسيح، يختتم اليوم بمحمد، ويَستكمل موضوعه وبناءه بالقرآن.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]

وهذه الأجيال المتساوقة والصفوف الهائلة من البشر الذين تحت راية الدين من إبراهيم إلى محمد إنما هم في حقيقتهم أبناء أمة واحدة ووطن روحي واحد.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]

فلماذا تقطعوا أمرهم بينهم؟ هكذا يتساءل القرآن ولماذا يكفرون بما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم؟ لماذا يؤمنون بكلمات الله الأولى ويجحدون كلمته الأخيرة؟

هل الإسلام أمر طارئ عليهم؟ أبدًا إنه لم يكن كذلك قط . . بل كان ولا يزا:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]

هل تعصب لنفسه وانطوى عليها؟ أبدًا بل اعتبر الإيمان ناقصا

ومردودًا ما لم يستوعب تقديس جميع الرسل وجميع الكتب وكل المرحلة السابقة من الدين.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]

هل اختص أتباعه – دون الآخرين – بفضل الله ورحمته؟

في الآيتين التاليتين أحكم جواب:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة:١١١-١١٢]

هكذا يضع القرآن هذه المقابلة الفاصلة..

فبينما يردِّد بعض أهل الكتاب يومذاك، من اليهود والنصارى أن رحمة الله خالصة لهم وحدهم، إذا بالقرآن يقول لهم: لا، بل هي لكل مَنْ يحمل قلبًا ويأتي عملاً صالحًا.. هي لكل من يُسلِمُ وجهه لله وهو محسن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة:٦٩]

هكذا يضرب القرآن مثلا - ليس يشبهه مثل - في رَحابة الأفق وعالمية الدعوة. فهو يقول:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]

وما الإسلام؟ إنه:

﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران:٩٥]

﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران:٩٥]

وَمَنْ إبراهيم؟ إنه أبو الأنبياء جميعا:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧]

هذا - إذن - كما يقرر القرآن إبراهيم أبو الأنبياء، قال الله له: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤]

وهو أيضا الرائد الأول والرسول الأول للدين :

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣١-١٣٣]

فما دام الدين دين إبراهيم . . وما دام إبراهيم أبا الأنبياء جميعا، وقائد الزحف الديني كله . . وما دام أهل الكتاب جميعا يُقرون بهذه الحقيقة، ويرون في إبراهيم عليه السلام الأب والمعلم فلماذا - إذن - لا يسيرون صفا واحدا تحت راية إبراهيم؟

بهذا المنطق الصادق الأخّاذ عرض القرآن قضية «وَحْدةِ الدين»، وعلَّم محمدًا أن يقول :

﴿إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١]

وأذَّن بين الناس جميعا قائلا :

﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]

ولكن . . إذا كان الدين واحدًا ففيم إذن كان الأنبياء العديدون، والرسل الكثيرون؟

إن القرآن يعلمنا أن الناس تختلف ألسنتهم ومشاكلهم واستعدادهم، من أُمَّة إلى أمة ومن جيل إلى جيل، وذلك يقتضي أن يكون لهم هداة يخرجون من نفس البيئة ونفس الصفوف.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد :٧]

هداة يُجلّون روح الأمة، ويحملون خصائصها ويدركون مشاكلها، ويتكلمون لسانها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم :٤]

وهؤلاء الهُداة والمرسلون، مهما يتتابعوا ويكثروا فهم لا يتناقضون، أبدا إنما يركزون جميعا بأساليب شتى على حقيقة واحدة، هى الحق والخير هذه الحقيقة التي هتف بها قديما إبراهيم:

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون:٣٢]

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]

فالإيمان برسول واحد يقتضي الإيمان بكل المرسلين، والإيمان بكتاب يقتضي الإيمان بالكتب جميعا.

من أجل ذلك طالب القرآن أتباعه أن يؤمنوا بجميع الرسل والأنبياء والكتب، ليحققوا بهذا الإيمان «وَحْدَة الدين».

كما طالب أهل التوراة وأهل الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد وبالقرآن، ليحققوا بهذا الإيمان كذلك «وحدة الدين».

واعتبر القرآن أيَّ نُكوص عن هذا السبيل نكوصًا عن شرعة إبراهيم كما قرر أن العقيدة تتعرض للخطر الجسيم إذا أنكر صاحبها رسولا من الرسل أو كتابا من الكتب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢]

ولقد أعطى القرآن جميع الأنبياء من ولائه وحبه واحترامه عطاءً مُفيضًا وحيَّاهم في أنفسهم وفي جهادهم تحياتٍ طيبات.

فعن إبراهيم قال:

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النحل: ١٢٠]

وعن داود قال:

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]

وسليمان:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]

وإدريس:

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٦-٥٧]

وأيوب:

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]

ويونس:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٣٩]

ويوسف:

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]

ولوط:

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء:٧٥]

وموسى:

﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤]

وهارون:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨]

ونوح:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]

وزكريا:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢]

ويحيى:

﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]

ومريم:

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]

وعيسى:

﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦]

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]

جميع الأنبياء: هود، شعيب، صالح، إدريس، إلياس، جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيَّاهم القرآن ورفع مشاعلهم عاليًا.

ولكي لا يدع منهم أحدا دون أن يذكره بحفاوة قال بعد أن فصَّل أسماءهم تفصيلا:

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]

وهو من خلال عرض سِيَرهِم يكشف عن وحدة الدعوة والدين التي انتظمت جهادهم جميعًا. فما من نبيٍّ منهم ولا رسول إلا كانت أُولى كلماته لقومه:

﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]

كلهم هتفوا بهذا المبدأ المقدس..

كلهم بلا استثناء جاءوا ليحرِّروا الضمير الإنساني من عبوديته الهابطة للأوثان والأصنام، وليَصِلوه بالإله الحق الذي ليس كمثله شيء.

وهذا هو لُباب الدين وقاعدته.

يبدأ كل رسول بدعوة الناس إلى الله الواحد الأحد وينذر عمره كله لإحقاق هذا الحق ثم عن طريق هذا الإيمان وبقوته التي تستقر في نفوس المؤمنين يواجه كلُّ رسولٍ نقائضَ قومه وخطاياهم فيعظهم فيها وينهاهم عنها ويقدِّم لأمَّته الحلول المناسبة لمشاكلها.

أما المضمون الحيُّ لكل كتاب وكل دعوة فواحد لا يتغير هو الإيمان بالله والعمل الصالح، هذا الذي عبر عنه القرآن في إيجاز وشمول:

﴿قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا﴾ [فصلت: ٣٠]

هذا هو ما يريد أن يضع أساسه ويعلي بناءه . . هذا هو الجوهر الذي توالت مواكب المرسلين لتنادي إليه عقول الناس وأفئدتهم .

فكيف إذن يصير الدين، الذي هو أداة جمع لا تشتيت، وسبيل وحدة لا فرقة كيف يصير أو بعبارة أهدى: كيف يصيره الناس أداة مُنابذةٍ وخلافٍ؟!

إن القرآن يضع جوهر القضية في مستوى كل بَصَرٍ رشيد وإنه ليدعو البشر إلى صراط مستقيم حين يقول لهم:

﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]

* * *



الفصل السادس

عن قضية التوحيد

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾



مَنْ شاء أن يرى القرآن وهو في أروع حالات توقُّده وتألُّقه وتحفُّزه وَسناه فَلْيَرَهُ وهو يتحدث عن وحدانية الله وقدرته ورحمته .

إن آيات القرآن حين تتحدث عن الله لَتبلغُ قمَّة الاحتدام الذكي والتفوق المنطقي وتصول الآيات وتجول في ميدان اكتظت أرضه بالأصنام والأوثان والشركاء والشُّبهات .

وتكاد تسمع للآيات مثل الصَّلْصَلةِ وهى تُدَمْدِم على الآلهة الزائفة والأرباب المجلوبين، تكاد ترى الآيات الكريمة وكأنها تَغْدُو ، وتقتحم ، وتتواثب ، وتدهم ، وتنذر ، وتُطوِّق ، وتباغت متعقبة أباطيل الشرك وأكاذيبه . . في كل مكان . . في كل زمان . . في كل مُناسَبة .

والقرآن العظيم حين يتحدث عن الله فإنما يتحدث عن الله الأحد ، فليس الله عنده إلا واحدًا أحدًا وحيث يوجد التعدد لا يكون ثمَّت إله ، ذلك لأن الله لا يتعدد ولا يتكرر ولا يتغير .

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء :١٧١]

والقرآن في هذا لا يزعم لنفسه أنه أتى بجديد بل هو ينادي في إلحاح أن تلك دعوة إبراهيم وملته .

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]

فإصرار القرآن على وحدانية الله ورفضه كل تعدد في ذات الله . . إصراره على رفض التشبيه والتمثيل بالنسبة لله الذي ليس كمثله شيء . . إصراره هذا وذاك إنما هو توكيد للحنيفية الأولى التي جاء بها أبو الأنبياء والمرسلين (إبراهيم) عليه الصلاة والسلام ثم هو توكيد لما هتف به موسى وعيسى وكلُّ رسول كريم .

ومن ثَمَّ يفيض القرآن في تبيان هذه الحقيقة ويقص علينا تجربة أبي الأنبياء مع حقيقة التوحيد .

يخبرنا القرآن كيف ذهب إبراهيم عليه السلام يبحث عن الله حين أحس من تلقاء نفسه أن هذا الوجود لا يمكن أن يخلو من مدبِّر مقتدر حكيم .

وكان إحساسا رشيدا لم يمنعه إيمان الناس جميعهم بالأصنام من أن يستجيب للحق الذي كان يلح عليه ليراه .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]

رأى إبراهيم أصناما مشيدة وكواكب معبودة وأبصر قومه موزعين بعضهم جاث أمام صنم يناجيه وبعضهم جاث أمام نجم يدعوه أما أصنام الأرض التي يبنيها الناس بأيديهم ثم يعبدونها فقد رفضها في بداهة سريعة .

ومضى يقلِّب وجهه في السماء ضارعا إلى الله الحق كي يكشف له

الهدى ويقدر له اليقين.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٩]

هكذا يجمعنا القرآن الكريم بأبي الأنبياء (إبراهيم) وهو يطالع الحقيقة بعد طول عناء ويعلن أن إلهه وإله الناس واحد فاطر السموات والأرض.

ويتابع القرآن تجربة أبينا إبراهيم فينقل إلينا حواره مع أبيه ومع قومه حول قضية الإيمان:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢-٤٥].

ويجيبه أبوه:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

ويجيبه إبراهيم:

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾

[مريم: ٤٧-٤٨].

ويمضي القرآن يعرض تجربة إبراهيم، مسلطا عليها الأضواء في ألوان شتى، ليظهر كل بهائها وكل دلالتها.

والقرآن إذ يُعْنَى بهذه التجربة الباهرة، إنما يدعم حقيقة الإيمان والتوحيد دَعْما وثيقا ويعطي الناس من رائد هذه الحقيقة قدوة تَجِلُّ عن النظير في ثباتها وصدقها وروعة انتصارها. لقد احتال قومه عليه ليفتنوه عن إيمانه فأخفقوا ثم لجأوا إلى تخويفه وترويعه بنقمة آلهتهم قاصين عليه الأساطير تِلْوَ الأساطير متضمنة غضب الآلهة الذي حاق بمن كفر وعذابهم الشديد الذي دمدموا به على من جحدهم واستنكف عن عبادتهم!!

فما كان جواب (إبراهيم) إلا صَلْصَلَةٌ بيقينه وجَلْجَلَةٌ بإيمانه وهُتافٌ عال باسم ربه الأحد الحفيظ الكبير المتعال.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي

كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا
أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ
بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ
أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢]

ويعرض القرآن مشهدا آخر، مشهد الذي فتنه مُلكه وغره جاهه ولعله كان ملك (بابل) فأراد أن يفتن الخليل عن إيمانه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ
الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ
أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

والقرآن يسوق هذه المحاورة لِيُرِيَنا بها كيف كان إبراهيم يُفصح عن إيمانه بالمنطق.

ذلك لأن الإيمان بالله: وجوده ووحدانيته، ليس لغزًا من الألغاز ولا أحْجية من الأحاجي، إنما هو حقيقة تجد في العقل وفي المنطق أداةً للتعبير عن نفسها، وإقامة الحجة على صدقها.

فعندما سأل (مَلِكُ بابل) نبيَّ الله إبراهيمَ برهانًا لم يأته بخارقة من الخوارق، بل توسَّل بالمنطق فأجابه: برهاني قصة الحياة والعدم فحيثما

تُقلِّب بصرك ترى وجودًا شامخا ونامِيًا، وتجد حياة متجددة دائبة. فهذه البيضة التي يخرج منها ديك يصيح أو طائر يطير.. وقطرات الماء التي يتشكّل منها الإنسان: الذَّكَر والأنثى - هل أصنامكم هذه تصنع من ذلك شيئا أو تُحْدِثُ منه أمرًا؟ كلا.. ولكنْ ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة :٢٥٨] ويجيبه الملك في سخرية عاجزة: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة :٢٥٨]

ذلك أنه يتصوَّر تحت وطأة صَلَفِهِ وجبروته أنه حين يدعو - مثلاً - رَجُلَينِ قد حُكم عليهما بالإعدام لجرم اقترفاه، فيعفو عن أحدهما ويُنجز الحكم في الآخر يتصور أنه لو صنع شيئا كهذا يكون قد أمات وأحيا!!

ولكن إبراهيم عليه السلام يبلغ من الفطنة والهدى ما يربأ به عن مناقشة هذا الخواء فيتخطّاه في سهولة إلى برهان آخر، وهو أيضا برهان كوني يستمد جوهره وشكله من معطيات العقل والحس فيقول: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة :٢٥٨]

في تهكم قاصف ماحق، وهو في نفس الوقت منطق واضح وصادق، أدلى إبراهيم ببرهانه الثاني.

إن هذه الشمس التي تمضي في حركة مقدّرة موقوتة لا تفعل ذلك وحدها بل إن لها ربا يمسكها ويهديها فمُرْها أن تقف أو غيِّر - إذا كنت إلها - مدارها ومسيرها وحركتها.

ثم يقول القرآن في حُبور وتهلل: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة :٢٥٨]

وينقلنا القرآن إلى مشهد آخر تتوالى فيه الحجة البالغة داحضة أوهام الشرك وأباطيل المشركين:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا
تَعۡبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ
هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝٧٣
قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا
كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ
عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨
وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ
يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِيٓ
أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٢]

إنه يتخذ من مظاهر الخلق دليله إلى الخالق، وهو في هذا الحوار يركِّز على دحض هذه الأصنام وكشف زيفها. هو يريد أن ينزع من صدور قومه كل إيمان بهذه الأصنام وكل ولاء واحترام لها، فإذا ما تم له ذلك وخرج الإيمان بها من القلوب وحلّ مكانه فراغ نظيف، قدّم هو الإيمان الحق الذي يملأ هذا الفراغ.

هذه هي الخُطة التي قضى إبراهيم في انتهاجها عمرا طويلا، وإن كان القرآن يجملها في مشهد وجيز فيرينا - أولا - نقده للأصنام تمهيدا للتشكيك فيها وطردها من قلوب عابديها: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣]؟

فإذا كانوا لا يسمعون مجرد سمع، ولا ينطقون مجرد نطق. وإذا كانوا

لا يملكون لكم بل ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فبأي منطق وبأي عقل تخرُّون لها سجدا، ولا تعبدون الله الحق الذي خلقكم وما تعلمون، والذي يطعم ويسقي ويميت ويحيي ويهدي ويشفي؟

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٧]

لقد جاءت الساعة الفاصلة، حيث ازدحمت نفس إبراهيم بالمقت لهذا الهوان الذي يتمرغ فيه قومه وهم لا يرعون أناس معهم عقولهم ومعهم حواسهم، ثم يحملون القرابين والأطعمة إلى حجارة منحوتة!!

عجبا.. ألا سألوا أنفسهم، ماذا ستصنع بها الأصنام؟ ثم هم يعبدونها ويرجون نفعها ويخافون عذابها، فمتى قدمت لإنسان نفعا أو ألحقت بأحد ضُرًّا؟

أيمكن أن يكون هؤلاء الناس في تقديسهم لهذه الأوثان يصدرون عن عقل؟ أبدا إنما هم يصدرون عن خوف.

فإذا رأوا أصنامهم هذه تتحطم وتتهشم ثم لا تستطيع حتى حماية نفسها، زالت عنهم المخاوف التي تقودهم إلى عبادتها. وهكذا يتخذ

إبراهيم قراره.

ويعرض القرآن علينا هذا المشهد في حماس وحركة، حتى نكاد نحس كأنه هناك، مع إبراهيم.. خطوة خطوة.. وخلجة خلجة.. وهمسة همسة.. بل كأنه هناك يحضه ويحرضه، ويهتف به ويهلل له:

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٨٤-٩٩]

أجل.. ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]

ويحكي القرآن انتصار سيدنا إبراهيم، الذي أنجاه الله من محاولات أعدائه، ثم سار في الأرض مُهاجرا ومذكِّرا.

والقرآن إذ يفيض في تبيان هذا النبأ إنما يعرض كما قلنا قصة الإيمان بالله وبوحدانيته في نقطة بدئها وانطلاقها في فجرها البعيد، حيث كان ثمت

مؤمن واحد وسط أقوام مشركين وثنيين.

وكأن القرآن يطرح هذا السؤال: ماذا كان المصير؟

أما الذين قضوا أيامهم جاثين أمام أوثانهم وأصنامهم فقد ذهبوا مع الأوثان بددا وخلَّفوا هباءً.

أما ذلك المؤمن الواحد، فقد أخرج الله من صلبه أنبياء بررة، حَملوا الراية وتوارثوا المِشْعَل.

فكان إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب.

وكان يحيي وإشعياء.

وكان موسى

وعيسى ومحمد

وكان هدى ملأ الأرض، ورحمة أدركت الناس.

هذا هو بطل الإيمان إذن، ورائد قافلته عبر الزمان الطويل.

هذا هو الذي حياه القرآن في ختام حديثه المفيض عنه فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]

وهذا هو الأب والمعلِّم الذي لم يزل القرآن دائما يذكر به رسول الله محمدا ويدعوه إلى متابعته ويناديه دائما:

﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ

إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١]

هذا هو رائد الإيمان الذي كانت حياته، وكانت دعوته ورسالته:

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت:١٦]

لَمْ يتْلُ القرآن قصته للتسلية، ولكن لِيُزكي بها قضية الوحدانية والإيمان من أجل هذا قال وهو يختم أحد مشاهد القصة:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤]

وقال وهو يهدي الناس إلى حقيقة الإيمان وطريقه:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]

ومن أجل شرح قضية الإيمان بالله، ومن أجل شحذ الولاء لها والاقتناع بها، يحكي القرآن قصة موسى، إذ ناداه ربه:

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه:١٤]

وإذ أمره أن يواجه (فرعون) بآياته، مُسلَّحًا بإيمانه، مزوَّدًا بيقينه:

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٢-٤٦]

وعند هذا المشهد يقف القرآن بالمؤمنين به وقفةً ذاكرة، فالإيمان بالله يُمْتَحَن في هذا المقام امتحانًا ظافرًا.

والرسول الذي يحمل هذا الإيمان في قلبه، دون أن يكون معه شيء من وسائل القوة والحول، يُواجه «فرعون» بكل بأسه وقوته.

والرسول تتحركُ فيه طبيعة البشر فيخاف من هذه المواجهة، ويُحاذِرُ عقباها، وهو يناجي ربه ويبثه ضعفه وخوفه، فماذا يملكان هو وأخوه من أسباب التوقِّي والنجاة؟ ولكن الله يأمره أن يتقدم أو لست وأخوك مؤمنين بي؟ إذن:

﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]

﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]

ونفس الحِجَاج الذي دار بين إبراهيم وملك بابل يدور هنا.. بين موسى وفرعون:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨]

ويتابع القرآن مشاهد القصة مشهدا مشهدا، عارضًا المحن التي يتعرض لها الإيمان، والمناورات المبهظة التي تقتضيه الصبر الطويل،

والعزم الجليل.

فيعرض ثبات الإيمان في فؤاد موسى وهارون حين يواجهان سخط فرعون وعذابه ثم ثبات الإيمان في قلوب السحرة الذين بدأوا جولتهم مع التوحيد قائلين: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٤]

ثم أتوا على نهايتها ساجدين، لله كافرين بفرعون، وصائحين من فرحتهم بالإيمان الذي ألقاه الله على أفئدتهم:

﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨]

ثم ثبات الإيمان حين جلس موسى وأخوه يتلقيان الكيد من قومهما من بني إسرائيل الذين أنجاهم الله من البلاء المبين، فما شكروه، وما حفظوا الإيمان الذي كان سبب نجاتهم وَمؤئل حياتهم، بل نكثوا وضلّوا وذهبوا يمكرون بمنقذهم ورسولهم.

﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠]

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ

فِى أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف :١٤٨-١٥١]

ثم يؤكد القرآن عظمة الإيمان واستغناءه فيردِّد الآية التي أعلن بها موسى النبي استخفافه بمؤامرات قومه ومكرهم :

﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم :٨]

ثم يُحيّي القرآن الإيمان الوثيق في نضال موسى وهارون ، كما حياه من قبل في تجربة إبراهيم فيقول :

﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:١٢٠-١٢٢]

وينتقل القرآن إلى تجربة الإيمان مع المسيح .

ويجمعنا بهذه التجربة الكبرى من أُولى لحظاتها من قبل أن يشهدها المسيح ذاته!!

أجل . . منذ قالت أمه وهو لا يزال في بطن الغيب :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢٠-٢١]

فالقرآن يرى في حياة المسيح كلها من باديتها إلى منتهاها برهانا وثيقا من ألمع وأصدق براهين الإيمان بالله :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٠]

كما أنّ موضوع هذه الحياة، وهتافها العالي، ومسعاها الدائب، كان حول الإيمان بالله .

فبين الذين أسماهم المسيح «**الخراف الضالّة**» وقف يزجر دعاة الكفر والعصيان

ووسط الذين كانت «روما» تصدِّر إليهم عبادة قيصر وقف المسيح يعلن بكل قوة وعزم أنه لا إله إلا الله .

ويتتبع القرآن كلماته وعظاته فينقلها إلينا مُزكّيا بها قضية الإيمان .

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠-٥١]

إنها نفس الآيات التي رددها ورتلها من قبل إبراهيم وموسى ورتّل صالحٌ من الأنبياء والمرسلين: ﴿ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥١]

وحين يرى القرآن قضية «الوحدانية» تتعرض للخطر بين أتباع المسيح نفسه، يتقدم حاملا مسئولية تلقاء عقيدة يرى أنها تحت وطأة الغُلوّ في التقديس قد خرجت عن الطريق:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]

والقرآن يعلم أن عقيدة التثليث إنما أزْجتها الرغبة المُغالية في تكريم المسيح وتقديسه. من أجل هذا يقرِّر أن وضع المسيح في مكانه من الله، باعتباره رسول الله وعبده وكلمته، لا ينقص من قدره شيئا..

أو لم يكن إبراهيم نفسه عبدا من عباد الله ورسولا من رسله؟.

وموسى الذي جاء المسيح ليكمل ناموسه، ألم يكن كذلك لا غير؟

وهكذا يقول القرآن عن المسيح:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء:١٧٢]

وينقل القرآن القضية إلى مستوى أعلى فيناقشها مع المسيح نفسه خلال حوار دار بين الله والمسيح. أو بتعبير أصح، خلال دفاع دَرَأ به المسيح عن نفسه مسئوليته عن عقيدة التليث.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة:١١٦-١١٩]

إذن . . فالمسيح قد جاء هذه الحياة ليأخذ دوره بين الذين اصطفاهم الله كي يعلنوا إلهيته ووحدانيته، وليدعوا الناس إلى الصراط المستقيم.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣]

والقرآن إذ يلقي أضواءه على الراية المؤمنة التي رفعها المسيح مناديًا بالله الواحد الأحد، إنما يفعل ليؤكد الحقيقة التي دأب الهتاف بها، ألا وهي أنه إنما جاء ليبعث العقيدة الدارسة التي نادى بها إبراهيم وموسى وعيسى، وجميع المرسلين.

فهذه العقيدة هى الدين، كل الدين، وقديما أوصى إبراهيم بنيه فقال:

﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة:١٣٢]

وسمّى التوحيد إسلامًا، وأسمى الدين إسلاما، فأنهى وصيته السالفة قائلا:

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]

هكذا عرض القرآن قضية الإيمان والتوحيد، إذ يرفع إبراهيم قواعدها ولواءها، وإذ يرفعها كذلك إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، ويرفعها موسى وعيسى، ويرفعها خاتم المرسلين محمد.

وهو بهذا العرض وخلاله يذكر أهل الكتاب بهذه الحقيقة، ويناقشهم حولها مناقشة يرجو أن يعيد بها عقيدتهم نور (إبراهيم) ورنين صِدْقِهِ وَنبْضَ هداه.

والقرآن يدير هذا الحوار المجيد حول قضية التوحيد مع أهل الكتاب،

بعد أن أداره من قبل وعلى نطاق واسع مع المشركين الذين اتخذوا من الأصنام آلهة يعبدون، فَبَين الرَّعيل الأول من آياته نزلت تلك الآيات الهاتفة بالإله الواحد الأحد، والتي فندت في منطق كاسح وثنيَّة قريش، وأذاقت أصنامها من سخريتها اللافحة وحجاجها المُدَمْدِم.

ولقد وضع القرآن فوق كاهل محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الأمانة الكبرى منذ بدأ يُخاطبه ويتنزَّل عليه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١-٣]

إن القرآن يدعوه أن يهتف باسم الله وحده: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣]

أجل.. «ربَّك» لا أرباب قريش ولا آلهتها التي نحتوها من الحجارة بأيديهم، أو نحتها لهم آباؤهم الأقدمون.

إن كل ولاء وطاعة.. إن كل توقير وتقديس لن يكون إلا لله ربك، وربِّ هؤلاء الحيارى التائهين وربِّ الناس جميعا فلا تَدْعُ مع الله أحدًا.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨-٩]

وتتوالى الآيات في سرعة الضوء وتبيانه.

وتتململ قريش أول الأمر، وتكتفي بالسخرية، تسرِّي بها عن نفسها الجَزِعَة، وتغالب بها مخاوفها النامية فيذهب نفرٌ من وجهائها إلى الرسول ويقولون له: يا محمد انْسُبْ لنا ربك!!.

إنهم لا يتصورون إلها بغير «أسْرة» !! وهم يطالبون الرسول ما دام - قد اتخذ إلها غير آلهتهم - بأن يَدُلَّهم على نسب ربّه . . من أبوه؟ ومن عائلته؟! ويجيبهم القرآن في هدوء :

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]

ويذهبون ثم يعودون بسخرية جديدة، بَطَلُها هذه المرة (أبيُّ بن خلف) جاء إلى رسول الله عليه السلام ممسكا بيده قطعة من عظام بالية، وضعها في كفه ثم أخذ يَسْحَقُها بأصابعه، وَيذْرُوها في الهواء ويقول للرسول : أتزعم أن ربك سيبعث هذه مرة أخرى؟!

ويتقدم القرآن بإجابته الساخرة القاهرة :

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس :٧٨-٧٩]

أجل . . إن القوة التي خلقت الإنسان من العدم قادرة على أن تعيده .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم :٢٧]

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم :٩]

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ﴾ [لقمان : ٢٨]

ثم يضرب لهم مثلا يجعل الأمر الذي يستنكفون عن تصديقه ويستبعدون تحقيقه بديهةً من البدائه المُسَلّمة، فيقول متحدثا عن الله سبحانه:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]

وينمو في صدر قريش الحنق والضيق، فيذهب إلى أبي طالب عم النبي وفد من رجالها يتقدمهم أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، ويدخلون على أبي طالب، ويقولون له:

أنت كبيرنا وسيِّدنا فأنْصفنا من ابن أخيك.. مُره أن يكفَّ عن شتم آلهتنا!!

ويرسل أبو طالب إلى ابن أخيه مَنْ يدعوه إليه.

ويجيء الرسول، ويسمع مقالة قريش لعمه فيقول لأعضاء وفدها هؤلاء:

«أرأيتم لو دعوتكم إلى كلمة هى خير لكم مما تجمعون؟!»

ويقول أبو جهل: هاتها..

ويقول الرسول: **«تقولون: لا إله إلا الله»**، وتفزع رجالات قريش ويعلو عواؤها، ويقولون:

﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا

لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤-٥]

فينادي القرآن الرسول قائلا :

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص: ٦٥-٦٦]

ويخوض القرآن معركة التوحيد مع أولئك المشركين، ومع كل مشرك كان أو سيكون يخوضها في غير هوادة، مُنْتَضِيًا حجته البالغة، مُمْتَشِقًا منطقه الذكي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]

ثم يُدَمْدِم عليهم بآياته الدَّاحضة :

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان :٣]

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف :١٩١-١٩٢]

وفي ختام الملحمة الحافلة يخاطب القرآن رسول الله مُثبِّتًا فؤاده على ما معه من عقيدة وإيمان :

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف :١٠٨]

من خلال هذا الحوار الدؤوب، مع المشركين تارة، ومع أهل الكتاب تارة أخرى، كان القرآن يشرح للناس حقيقة «الله» . . كان يقود الوجدان البشري والعقل الإنساني إلى الله الحق، في آيات مُيَسَّرة واضحة، وفي منطق جزل مبين .

وكان سبيله لهذا : إعمال العقل، وتحريك قوى النظر والتأمُّل والاقتناع، فالأحاجي والألغاز والأساطير لا تدل على الله؛ لأن الله هو «الحقّ المبين» والحق المبين إنما يسار إليه في هدى العقل البصير والرؤى الرشيدة .

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام :٥٠]

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون : ٨٠]

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨]

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]

فالقرآن يقدِّم «الله» إلى عباده في موكب حافل من آيات قدرته، ورحمته، وعظمته.

فمن هو الله؟

إن القرآن لا يحدثنا عن لونه، ولا عن حجمه، ولا عن شخصه، لأن الله أَعْلى وأجلُّ من أن يعرف بهذه الأعراض.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

وإذا أردنا أن نعرفه فُلنُدِر أبصارنا في الآفاق وفي أنفسنا، فهنالك وهنا نرى من آياته الكبرى ما يدلُّنا عليه.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٣-٤]

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الرعد :٢]

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٣]

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٢-١٣]

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥]

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر:٤١]

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١]

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٨-٤٠]

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:١٩]

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٦١]

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩]

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٤-١٦]

من خلال النظر في هذه الآيات الكبرى يريد القرآن أن يصل الناس بربهم وأن يتعرفوا إليه بتأمُّلهم وتفكيرهم.

فالله هو القوي المقتدر والخلاَّق العظيم وهو من وراء كل هذا الكون المديد البعيد الرحيب العجيب هو من ورائه بقوته وقدرته وإبداعه، وهو من ورائه محيط.

من شاء أن يراه فها هو ذا في كل آثار رحمته وقدرته.

في النبتة الطالعة..

في القطرة الهاطلة..

في الشعاعة الحافلة..

في مواقع النجوم..

في الليل إذا يغشى..

والنهار إذا تجلى..

في الشمس تجري لمستقر لها..

وفي الأرض تمر مر السحاب..

في كل ما خلق الله من شيء نستطيع أن نرى الله نور السموات والأرض وبارئهنّ العظيم.

فإذا أردنا أن نعرف طرفا من صفاته فالقرآن لا يبخل علينا بما نريد:

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦]

﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]

﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]

﴿ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]

﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]

﴿يَقْضِي بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠]

﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة:٢٠٢]

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨]

﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:٣]

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨]

﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٦]

﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨]

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]

وأخيرا..

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

[الأحزاب:٤٣]

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]

على هذا النحو توفّر القرآن على قضية الإيمان والتوحيد كما لم يتوفر على قضية أخرى سواها.

وما كان بوسعه ألا يفعل، فلقد جاء القرآن - يوم جاء - إلى دنيا مُثْقَلة بآلهة كاذبة من أصنام الحجر وأصنام البشر.

والفطرة الإنسانية يومئذ كانت تجتاز في كل الأرض، لا في مكة وحدها، مِحْنةً عاتيةً مظلمة.

والقرآن الذي يعي تماما مسئوليته عن هذه الفطرة كان لابد له أن يردها إلى جوهرها.

وسبيل ذلك أن يردها إلى الإله الحق ويحررها من كل خضوع ورضوخ.

من أجل ذلك.. ذهب القرآن الكريم يَبُثُّ في أفئدة الناس يقينًا كاملا بأن الله وحده الرحيم الودود هو بارئهم وإلههم ومنه وحده يستمدُّ الضمير الإنساني سيادته وكيانه.

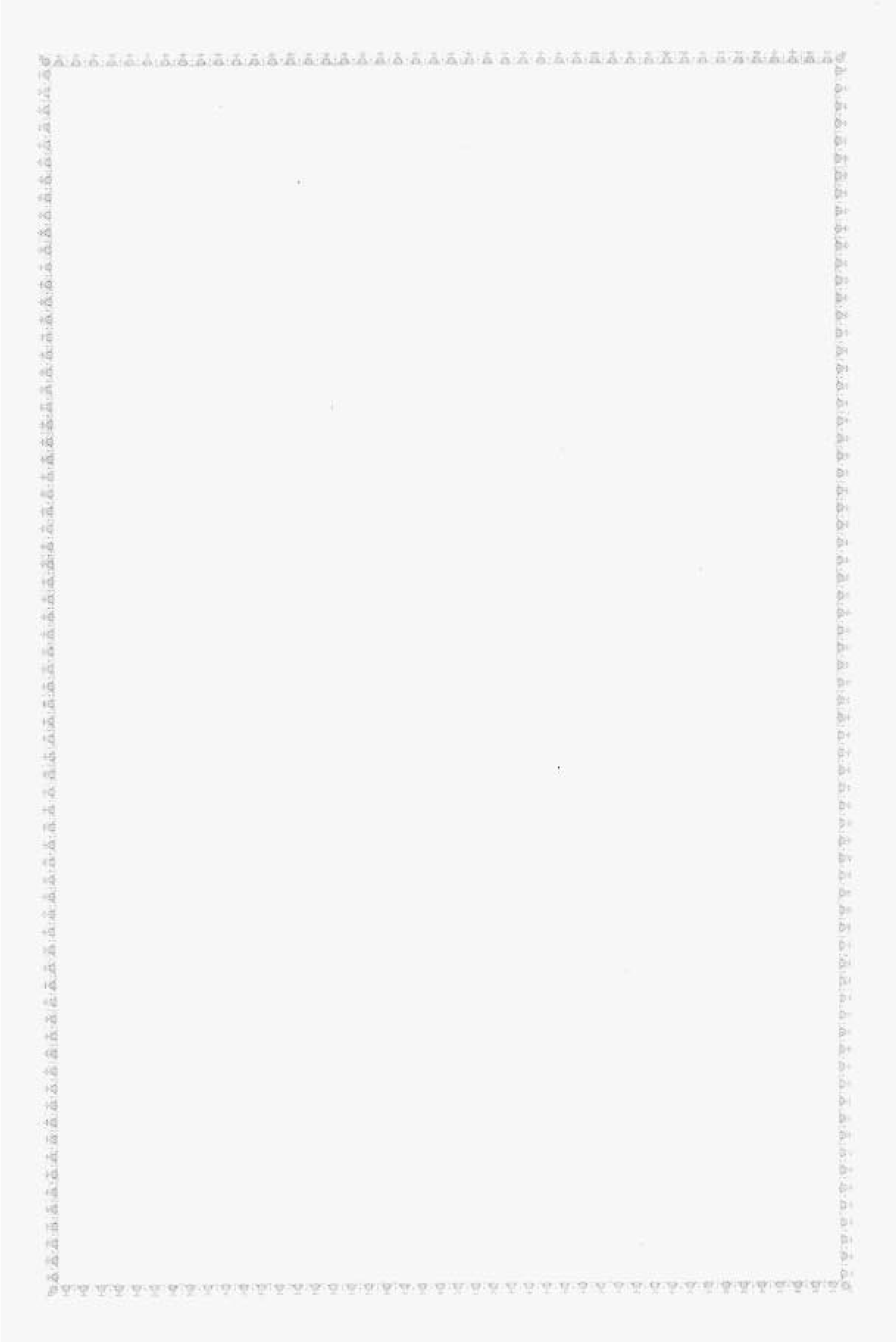
ويريد القرآن بهذا أن يحرِّر الناس من كل عبودية زائفة يفرضها عليهم الأقوياء بأموالهم أو بسلطانهم أو بما معهم من جاه وصلف.

فقضية الإيمان بالله الواحد الأحد ليست مجرد شعار ديني يرفعه القرآن بل هو يراها كبرى الحقائق التي إذا خرجت الحياة الإنسانية عن فلكها السيَّار تبدَّدت وتلاشت.

وحين نتلوا الآيات التي زكى بها القرآن قضية التوحيد هذه نلمح في

يُسْر الغرض الإنساني الذي ترفعنا إليه هذه الآيات ألا وهو تحطيم الأغلال التي ترسف فيها إرادة الإنسان وفتح طريق التطور والنمو أمام حرية الضمير.

* * *



تعريف بالكاتب

خالد محمد خالد

(المتوفى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)

كان مولده يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٩ من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الموافق ١٥ يونية سنة ١٩٢٠ ميلادية، في "العدوة" إحدى قرى محافظة الشرقية بمصر، والتحق في طفولته بكتاب القرية، فأمضى به بضع سنوات، حفظ في أثنائها قدراً من القرآن، وتعلم القراءة والكتابة..

ولما عقد والده - الشيخ محمد خالد - عزمه على أن يلحقه بالأزهر الشريف، حمله إلى القاهرة، وعهد به إلى ابنه الأكبر "الشيخ حسين" ليتولى تحفيظه القرآن كاملاً، وكان ذلك هو شرط الالتحاق بالأزهر في ذلك الوقت.

أتم حفظ القرآن كله في وقت قياسي وهو خمسة أشهر كما بين ذلك مفصلاً في مذكراته "قصتي مع الحياة" - ثم التحق بالأزهر في سن مبكرة، وظل يدرس فيه على مشايخه الأعلام طيلة ستة عشر عامًا حتى تخرج فيه، ونال الشهادة العالية من كلية الشريعة سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، وكان آنذاك زوجًا وأبا لاثنين من أبنائه.

عمل بالتدريس بعد التخرج من الأزهر عدة سنوات حتى تركه نهائيًا سنة ١٩٥٤، حيث عين في وزارة الثقافة كمستشار للنشر، ثم ترك الوظائف نهائيًا بالخروج الاختياري على المعاش عام ١٩٧٦.

وبُذلت له عروض مغرية كثيرة لنيل وظائف قيادية فى الدولة، سواء فى رئاسة جمال عبد الناصر أو أنور السادات، فكان يعتذر عنها، ورفض عروضًا أخرى كثيرة لأسفار يسيل لها اللعاب، وآثر أن يبقى فى حياته البسيطة المتواضعة التى يغلب عليها الزهد والقنوع(*).

وقد تقلّبت حياته فى أطوار متعددة، من حفظ مبكر وسريع للقرآن الكريم، إلى طالب نابه بالأزهر الشريف، إلى شاب متعطش للمعرفة، تواق إلى أنواع الفنون والآداب والثقافات، إلى منغمس فى السياسة مشغول بها، إلى خطيب بارع تهز خطبه السياسية أعواد المنابر، ثم إلى واعظ تغمر دروسه وخطبه القلوب بنشوة الإيمان، إلى عابد مشغول بالآخرة، وصوفى مشغول بربه، وهكذا.. وقد شرح ذلك بالتفصيل فى مذكراته التى كتبها وجعل عنوانها "قصتى مع الحياة".

وفى سن مبكرة التقى بشيخه المربى الكامل الشيخ محمود خطاب السبكى إمام أهل السنة ومجدد رواق الإسلام - كما وصفه هو - وكان أعجوبة من أعاجيب الزمان، وشاهداً على ما يفيض الله على أوليائه وأحبابه من واسع فضله وعطائه (**).

وصفه بقوله: "إن وصفه لمن الأمور الصعبة، والحديث عنه بقدر ما هو شهى وندى.. يوقع الكاتب فى حيرة.. وهكذا يكون شأننا مع أنبياء الله والمرسلين.. ومع أوليائه المقربين.. فنحن ننشق عبيرهم الذى يتضوع بهاء وعطراً.. ونتقلب فى نعماء ما آتاهم الله من نور وهدى وحكمة.. بيد أن الاقتراب منهم يفرض علينا من التبعات مالا نطيق.. والحديث عنهم،

(*) انظر "قصتى مع التصوف" لخالد محمد خالد نشر دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(**) انظر قصتى مع التصوف.

وتفسير مواقفهم، أمر يعسر تناوله إلا على من يجعل الله عسره يسراً "(*) .

***

وكما كانت حياته في بواكيرها كالنهر الذى تجيش مياهه بالفيضان، وتتقلب في تدفق وعنفوان، فإنه كلما اقترب من البحر هدأت أمواجه، واطمأنت مسيرته، حتى إذا امتزج بماء البحر صار له هدوؤه وشموله واتساعه..

وجاءت مؤلفاته الرائدة كذلك؛ بدأت ثائرة متدفقة..وانتهت إلى الرسوخ واليقين.. وفي كلها كان مخلصًا، لا يبتغي بأى منها عرضًا من أعراض الدنيا. بل لقد جاءته الدنيا تعرض نفسها عليه من أوسع أبوابها، فأوصد دونها بابه ...

ومثال على ذلك أن جمال عبد الناصر ورفاقه في مجلس قيادة الثورة كانوا قد قرأوا كتبه قبل الثورة، وتحمسوا لها لدرجة أن عبد الناصر كان يشترى منها - من جيبه الخاص - مئات النسخ ويوزعها على زملائه الضباط (**)، ومع ذلك فإنه لمّا قامت الثورة لم يرد أن يستفيد منها، وكانت فرصته في ذلك عظيمة، ولكنه بدلاً من ذلك وقف ناقداً للثورة موجهًا لها، مطالبًا حكومتها بتطبيق الديمقراطية، فكان صدور كتابه "الديمقراطية أبداً" بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

وظلت هذه مواقفه من الثورة ورجالها حتى تُوجت بموقفه الفريد في

(*) من مقدمة الكتاب "في صحبة الشيخ محمود خطاب إمام السنة وقطب الأقطاب" للأستاذ توفيق أحمد حسن، دار المقطم بالقاهرة.

(**) انظر "قصتي مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر.

"اللجنة التحضيرية" سنة ١٩٦١، وفيها انتقد مواقف الثورة من قضايا الحرية والديمقراطية، وعارض ما أراد عبد الناصر القيام به من إجراءات تعسفية ضد من أسموهم ـ حينئذ ـ ببقايا الإقطاع، وأعداء الشعب.. بعد أن نزعوا أموالهم غصبًا وظلمًا، ونكلوا بهم بغير جريرة ارتكبوها، فصاروا بعد عز فى ذل، وبعد غنى فى فاقة وعوز، وبعد أمن فى خوف، ولا يجدون من يدافع عنهم، أو ينتصر لهم.. فكان هو الصوت الوحيد الذى ارتفع فى وجه الصمت والخوف، مدافعًا عن الحق، طالبا لهم ـ بدلاً من العزل السياسى ـ "العدل" السياسى، ولما أُخذ التصويت فى المجلس على من يعترض على إجراءات العزل السياسى، كانت يده هى الوحيدة التى ارتفعت فى سماء القاعة التى ضمت ـ يومئذ ـ ثلاثمائة وستين عضوا(*).

***

منذ كتابه الأول "من هنا نبدأ" خرج خالد محمد خالد على الناس ككاتب فذ، وصاحب فكر، ومنافح عن قضايا الأمة.. وبذا تحدد موقعه كمصلح اجتماعى وزعيم فكرى تعلقت به جماهير غفيرة من الناس، وأعجبت بكتبه وأفكاره، ليس فى مصر وحدها، بل وخارجها أيضا..

وطبع "من هنا نبدأ" ست طبعات فى سنتين اثنتين، وتُرجم فى نفس السنة التى صدر فيها إلى الإنجليزية فى أمريكا، وكتبت عنه عدة رسائل وأبحاث جامعية ومقالات فى أنحاء متفرقة من أوربا وأمريكا..

ولكن فطرة المؤلف النقية، ونيته الصادقة جعلاه ـ فيما بعد ـ يقول إنه عندما رأى حفاوة أعداء الإسلام بالكتاب أدرك أنه أخطأ فيه.

(*) انظر "قصتى مع الحياة "فصل: حوار مع عبد الناصر.

وهنا يتجلى واحد من مواقفه التى امتلأت بها حياته، إذ ظل يفكر فيما دعى إليه فيه من فصل الدين عن الدولة ويقلبه فى ذهنه حتى أعلن على الملأ رجوعه عن هذا الرأى، فلم يخجل - وهو الكاتب الكبير - من أن يعلن أنه أخطأ.. وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته.

فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تلفزيونية.. ثم لم يكتف بهذا كله، فكتب كتابًا كاملاً أعلن فيه تصحيحه لرأيه الأول، وراح يدلل على أن الإسلام دين ودولة، بل إنه جعل شعار الكتاب هو: "الإسلام دين ودولة..

حق وقوة..

ثقافة وحضارة..

عبادة وسياسة.."

***

وقد خلف - رحمه الله - ثروة علمية كبيرة تربو على ثلاثين كتابا، غير المقالات والأحاديث الكثيرة التى لم تُجمع بعد.. وقد نفع الله بأعماله تلك نفعًا كبيرًا، وتلقفها القراء فى شوق، لأنها - ككل أعماله اتسمت بالإخلاص، وتدفقت بالعاطفة الصادقة الجياشة..

وأشهر مؤلفاته، وأكثرها انتشارًا هى الإسلاميات التى جاءت فريدة فى بابها من حيث الأسلوب، وطريقة التناول، وأشهرها على الإطلاق "رجال حول الرسول ﷺ" الذى تحدث فيه باقتدار عن سيرة ستين من أصحاب رسول الله ﷺ، و "خلفاء الرسول ﷺ" الذى ضم بين دفتيه خمسة كتب عن الخلفاء الراشدين:

١- "وجاء أبو بكر"

٢- "بين يدى عمر"
٣- "وداعًا عثمان"
٤- "فى رحاب على"
٥- "معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز"

وقد ترجمت هذه الكتب إلى لغات كثيرة فى أنحاء عديدة من العالم..

ومن كتبه أيضًا: "أبناء الرسول فى كربلاء" و "والموعد الله" و "لقاء مع الرسول ﷺ" و "كما تحدث الرسول ﷺ" و "كما تحدث القرآن" و "إنسانيات محمد ﷺ" و "عشرة أيام فى حياة الرسول ﷺ" وغيرها..

أما كتبه السياسية والإنسانية والاجتماعية والفلسفية فهى عديدة كتب منها ثلاثة كتب فى موضوع الديمقراطية وحدها، وهى:

"الديمقراطية أبدا" و "دفاع عن الديمقراطية" و "لو شهدت حوارهم لقلت".. راجع قائمة المؤلفات فى آخر الكتاب..

وكتب - أيضًا - مذكراته فى كتاب "قصتى مع الحياة"، وقد نشرت لأول مرة فى جريدة "المسلمون" السعودية و "المصور" المصرية فى آن واحد، وبعد أن تمت طبعت فى جزء واحد فى مؤسسة أخبار اليوم، ثم طبعت طبعة جديدة بدار المقطم بالقاهرة.

وكان آخر كتبه "الإسلام ينادى البشر"، وقد أراد له أن يخرج فى ثلاثة أجزاء:

الأول: إلى هذا الرسول ﷺ"
الثانى: "إلى هذا الكتاب" (القرآن)
والثالث: "إلى هذا الدين"

ولكنه لم يتمكن إلا من كتابة الجزء الأول، ثم وافته المنية.

***

أما عن عادته فى الكتابة، فإنه لم يكن يجلس للكتابة ـ قط ـ إلا إذا استشعر الحاجة الملحة لذلك، وتكون الفكرة التى يريد الكتابة عنها قد نضجت، وطلبت الظهور، حينئذ يجلس فى أى مكان، وفى أى ظروف ويبدأ فى الكتابة دون أن يلتفت لما حوله أو ينشغل به.. وقد تمضى ـ أحيانا ـ من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئًا لأنه لم يجد ما يهيج فى نفسه الدافع للكتابة..

وقد اتسمت كتاباته بأسلوب رشيق بديع، وقدرة فائقة على التعبير والغوص إلى جوهر الأشياء، ووصفها بيسر وروعة، واقتدار. وكان كثيراً ما يُسأل عن السر فى جمال أسلوبه فكان يقول:

"إن الأسلوب فى الكتابة لا يصنعه شىء إلا رب العالمين"

وقد أورد الدكتور شاكر النابلسى فى كتابه الذى كتبه عنه نموذجًا من كتابته، وجعله تحت عنوان "عزف لغوى"(*)، وهو العنوان الذى يصف رشاقة أسلوبه وجماله، ونفوذه إلى القلوب..

***

وكان ـ رحمه الله ـ طيب النفس، مستبشراً فى عامة أوقاته، تغلب عليه السكينة والتأمل..

وكان غاية فى الكرم، غاية فى التواضع ونبل الأخلاق، باراً بوالديه وصولاً للأرحام مراعيًا لحقوق الزمالة والجيران، ساعيا ـ إلى آخر أيامه ـ فى قضاء حوائج الناس، لا يمل من كثرة قاصديه، ولا يضجر من إلحاح

(*) ثورة التراث، دراسة فى فكر خالد محمد خالد للدكتور شاكر النابلسى.

بعضهم عليه حتى فى أوقات مرضه، وكان يقول: "تلك زكاة الجاه".

واتسمت حياته كلها بالزهد فى المال والمناصب ومظاهر الجاه، وقد استفاض فى وصف ذلك من عرفوه وكتبوا عنه (*) ومن ذلك أيضا مواقفه التى أظهرت ما كان عليه من شجاعة ومن مكارم الأخلاق منها موقفه من الأخوان المسلمين الذين كان قد عارضهم قبل الثورة، ولكنه بعدها، وبعد أن نكلت الثورة بهم ومزقتهم كل ممزق، طُلب منه مهاجمتهم ونقدهم فأبى ولم يخضع لإغراء ولا تهديد قائلاً: "لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم!! ويوم كانوا من القوة بمكان.. أما اليوم وهم فى المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول ﷺ ألا نجهز على جريح".

وقد نقل الشيخ يوسف القرضاوى تفاصيل هذا الموقف فى مذكراته التى نشرها فى جريدة "آفاق عربية" (العدد رقم ٥٧٣).(**)

***

كان ـ رحمه الله ـ محبًا للخير، مسارعًا إليه، كأنه كان يصف كوامن الخير فى نفسه عندما كتب هذه السطور من كتابه "لقاء مع الرسول ﷺ":

"فإذا سألتنى ـ أيها القارىء ـ ما الخير؟ أجيبك من فورى: إنه الخير.. إنه ذلك الذى يجعل الإنسان إنسانًا حى القلب، ريان الضمير.. وذلك الذى يجعل منك ملاذًا للآخرين، يأوون إليك كما يأوى المحرور إلى ظل شجرة، أو كما يأوى الظمآن إلى عين ثرة تفيض بالماء البارد النمير.

(*) راجع "قصتى مع التصوف" ص ٣٧ وما بعدها طبعة دار المقطم بالقاهرة.

(**) راجع "قصتى مع التصوف" ص٤٤ وما بعدها . ط المقطم.

هو انعكاس إنسانيتك على الآخرين، وإضفاء فضائل نفسك البارة الكريمة على الحياة وعلى الأحياء.

وإن خير ما يصنعه المرء فى حياته هو أن تسع حياته الناس رحمة وبرًا، ومحبة وودًا".

فكان مُحبا للناس، لجميع الناس، مستأنسًا بهم، متوددًا إليهم، متغافلاً عن أخطائهم متسامحًا مع من يسيئون إليه..

كان ـ باختصار ـ متخلقًا بأخلاق الإسلام، وإن لم يحرص على أن يكسو نفسه بمظهره.. بل كان له مظهر الرجل العادى ـ كسائر الناس. أما سلوكه وأخلاقه فكانا يدلان على عمق إيمان ورسوخ يقين..

وكان يعزو ذلك إلى التصوف فيقول فى مذكراته:

"ومرة أخرى أنحنى إجلالاً للتصوف، فهو الذى سكب فى روحى كل ما روى ظمأها إلى الخير والسكينة والمرحمة والمعدلة، وكل ما بقى لى .. من قربات ومغانم ومناعم، ومن فضائل وقدرة وإصرار.. فإليه ـ أولا ـ يرجع الفضل بين كل الأسباب، وقبل كل الأسباب"

لقد كان ـ رحمه الله ـ ممن تشرب روح التصوف منذ يفاعته، ولم يكن تصوفه إلا فى قلبه، فلم ينتم إلى أى من طُرقه، بل تلقاه مبكرًا على يد شيخه السبكى رضى الله عنه (*)

وكان محبًا لأهله أينما وُجدوا مداومًا على زيارة أضرحة أهل البيت، وأولياء الله الصالحين .

ومن أقواله المأثورة:

- "إنى لا أرفض إنسانًا لأن فيه خطأ أو اثنين أو عشرة، وأرفض معه

(*) راجع قصتى مع التصوف.

بقية فضائله، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد".

- "إن الحب هو جوهر الحياة.. إن الحب يولد فى النفوس طاقة لا تعدلها طاقة أخرى فى الكون ولا تقابلها"
- "الله سبحانه لا يعيق المهاجرين إليه، والمسافرين إلى رضوانه، بل يجعل لهم الأرض مهداً، والسماء سُبلاً".
- "على رأس فضائل الحياة وشعار الدين تقف فضيلة الحب"
- "لابد للحب كى يصفو ويدوم أن يكون خالصًا، صافيًا، نقيًا، وبكلمة واحدة: أن يكون لله رب العالمين".
- "كما ننام نموت.. وكما نستيقظ نُبعث.. ومن كان فى شك من الموت والبعث، فليعش إن استطاع بلا نوم وبلا استيقاظ".
- "علاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التى تفرضها وللسلوك الذى نحمل به هذه التبعات".
- "إننا من طول ما ألفنا بعض الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسرّ الباهر الذى تحمله، والحكمة الثاقبة التى تمنحها".
- "إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا ومالها من حظوظ الخير والفضيلة".
- "لا تجد مؤمنا إلا حييا، ولا منافقًا إلا عديم الحياء".
- "الإسلام لم يأت ليعلمنا أخلاق الصوامع.. بل ليعلمنا أخلاق المدينة".
- "الكذب مفسدة مطلقة، لأنه سريع النمو، سريع الانتشار، وله ضراوة كضراوة الخمر أو أشد".

- "الرياء آفة تمحق الأعمال وتردها ترابًا فى تراب".
- "التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس".
- "الإيمان بالقدر لا يقول لك: نم وانتظر قدرك.. بل يقول: قم واكتشف قدرك".
- وسُئل عن القومية العربية فأجاب: إنى لا أعرف شيئًا عن القومية العربية، ولكنى أعرف أشياء عن الوحدة الإسلامية".
- وقال شعرًا فى عيد مولد النبى ﷺ:

يا عيد مولده كم ذا تواتينا	تشدو فتبهجنا، تشجو فتبكينا
قل للرسول إذا ما جئت روضته	أدرك شعوبك قد حار المداوونا

***

وفاته:

كان ـ رحمه الله ـ قد مرض مرضًا طويلاً، واشتد عليه فى سنواته الأخيرة، ومع ذلك كان دائم القول: "لا راحة للمؤمن دون لقاء الله" ولم تكن فكرة الموت تزعجه، بل كان كالمنتظر له على شوق، وقد استعد له، وأوصى بما يريد..

وكان من وصيته أن يُصلى عليه في الجامع الأزهر، معهده العلمى، ومرتع صباه وشبابه، وأن يُدفن بقريته "العدوة" بجوار الآباء والأجداد والإخوان والأهل..

وجاءته الوفاة وهو فى المستشفى يوم الخميس، ليلة الجمعة ٩ شوال سنة ١٤١٦هـ ـ الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩٩٦م ـ عن عمر يناهز الستة والسبعين عامًا.

***

اللهم إنى قد قلت فيه مبلغ علمى..

ولا يخلو كلامى من أثر حب الولد لوالده..

اللهم لا تكله إلى عمله..

واشمله برحمتك يا بر يا رحيم..

وصل اللهم على الحبيب الشفيع..

سيدنا محمد ..

وسلام على المرسلين..

والحمد لله رب العالمين..

محمد خالد ثابت

الفهرس

تمهيد ٣

مقدمة ٥

الفصل الأول : عن نفسه..

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [يونس :١] ١١

الفصل الثاني : عن منهج الدعوة إلى الله..

﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل :١٢٥] .. ٢٥

الفصل الثالث : عن البسطاء الكادحين..

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس :٣] ٣٧

الفصل الرابع : عن اهتماماته الإنسانية..

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة :١] ٥٣

الفصل الخامس : عن وحدة الدين..

﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى :١٣] ..٦٧

الفصل السادس : عن قضية التوحيد..

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام :١٠٢] ٨٣